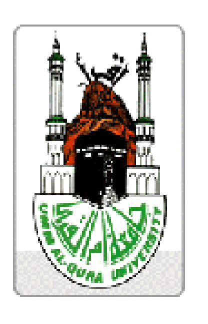
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم العقيدة



دراسة عقدية لكتاب:

النقد الثقافي

تأليف: د. عبد الله الغذّامي

بحث مقدم في مادّة نوازل عقدية لمرحلة الدكتوراه

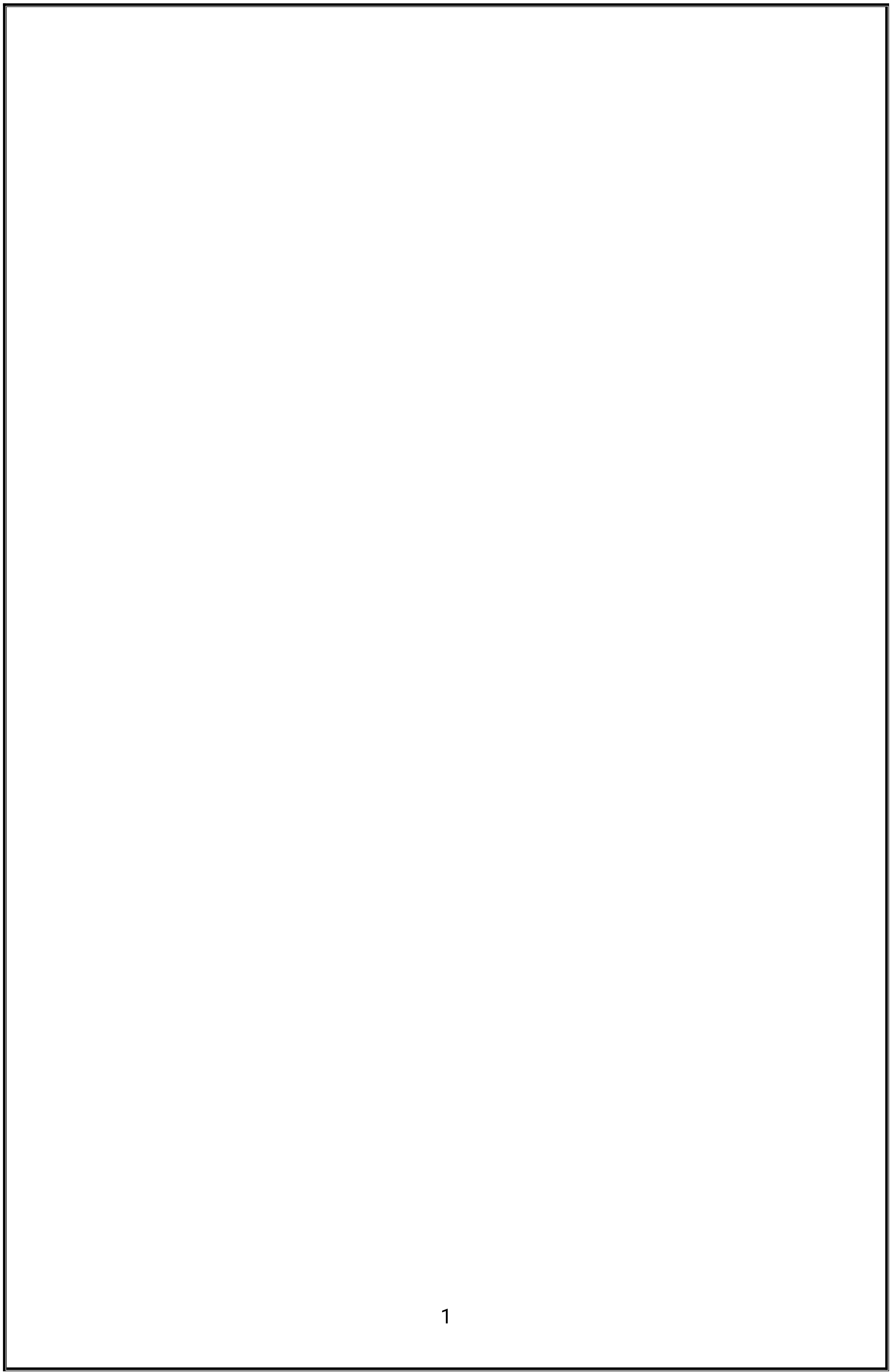
إعداد الطالب:
بدر بن محمد ناضرين

أستاذ المادة:
أ.د. أحمد بن سعد الحمدان

الفصل الدراسي الثاني

1428هـ - 1429هـ

Modifier avec WPS Office



Modifier avec WPS Office

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فضمن بحوث السنة المنهجية لمرحلة الدكتوراه بقسم العقيدة بجامعة أم القرى لمادة "نوازل عقدية" والتي يقوم بتدريسها صاحب الفضيلة الأستاذ الدكتور أحمد بن سعد الحمدان حفظه الله، فقد اخترت بحثاً بعنوان: ((دراسة عقدية لكتاب: "النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية" من تأليف: د. عبد الله الغذّامي)) .

وهذا الكتاب طُرح في الساحة الثقافية، كآلية للنقد، تُعد تالية للنقد الأ دبي، فالنقد الثقافي يبدأ من النقد الأدبي، ولكنه يتجاوزه إلى الكشف عما لا يكشف عنه النقد الأدبي. والنقد الثقافي في أصله مشروع نقدي غربي، يُعد أهم من نقله إلى حياضنا الثقافية الدكتور عبد الله الغذامي، حيث ألف كتاباً بعنوان: "النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية".

ثم تلت آلية النقد الثقافي آلية أخرى، فجاء: "النقد المعرفي" !، ولا عجب أن تستمر الآليات، والأنواع والتعبيرات المختلفة.

والجانب الذي أدرسه في كتاب "النقد الثقافي" هو الجانب العقدي، فلا أقف مع الدكتور الغذامي – مثلا ً – في تطبيق مقومات النقد الثقافي السبعة التي أوردها على النموذجين المدروسين آخر الكتاب، فالذي يهمني هو كيفية تطبيق الدكتور الغذامي لنظرية النقد الثقافي، وربطه ذلك بقيم الأمة وسلوكياتها في واقعنا.

وقد جعلت البحث على الخطة التالية:

التمهيد الأول: تعريف بمؤلف الكتاب: د. عبد الله الغذّامي.

التمهيد الثاني: التعريف بنظرية النقد الثقافي.

المطلب الأول: الثقافة العربية والشعر، وتحته:

- منزلة الشعر من ثقافة العرب.
- موقف الإسلام من الشعر.

المطلب الثاني: وقفات مع النقد الثقافي:

- حدود النقد الثقافي.
- تاريخية النقد الثقافي.

Modifier avec WPS Office

- موقف المؤلف النقدي لنزار قباني.

- موقف المؤلف النقدي لأدونيس.

الخاتمة ونتيجة البحث.

الفهرس.

هذا، والله أسأل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، وأن يوفقني لما يحب ويرضى، وأشكر مقدماً كل من أهدى إلي نصيحة أو تعليقاً أو ملحوظة، ورحم الله من أهدى إلي عيوبي.

وأتقدم بشكري الجزيل لفضيلة الأستاذ الدكتور أحمد بن سعد الحمدان، أستاذ مادة النوازل العقدية، ولكافة زملائي في الدراسة المنهجية، على الملحوظات الجليلة والقيمة التي أفدت منها في تدارك أمور وتعديلها في هذا البحث، فجزاهم الله خير الجزاء.

Modifier avec WPS Office

التمهيد الأول

التعريف بمؤلف كتاب "النقد الثقافي": الدكتور عبد الله الغذّامي[1]

هو عبد اللّه بن محمد الغذّامي الشمري، ولد سنة (1946م)، أكاديمي وناقد أدبي وثقافي سعودي، من مواليد عنيزة، من منطقة القصيم، أستاذ النقد والنظرية في جامعة الملك سعود بالرياض. حاصل على درجة الدكتوراه من جامعة (اكستر) بريطانيا.

كان طرفاً في المناقشات الأدبية التي شهدتها الساحة السعودية، ونادي جدة الأدبي الثقافي تحديدا ً في فترة الثمانينات بين الحداثيين و السلفيين.

وله خصوم من بعض الحداثيين كسعد البازعي وأدونيس.

يكتب مقالا ً نقديا ً في صحيفة الرياض منذ الثمانيات، وعمل نائبا ً للرئيس في النادي الأدبي والثقافي بجدة.

إنتاجه:

- الخطيئة والتكفير: من البنيوية إلى التشريحية (1985).
- تشريح النص، مقاربات تشريحية لنصوص شعرية معاصرة (1987).
- الصوت القديم الجديد، بحث في الجذور العربية لموسيقى الشعر الحديث (1987).
- الموقف من الحداثة (1987).
- الكتابة ضد الكتابة (1991).
- ثقافة الأسئلة، مقالات في النقد والنظرية (1992).
- القصيدة والنص المضاد (1994).
- رحلة إلى جمهورية النظرية: مقاربات لقراءة وجه أمريكا الثقافي (1994).

---

(1) من موقع: "ويكيبيديا". قد راجعت الموقع الخاص بالدكتور عبد الله الغذامي، ولكنه لم يحو تعريفاً به.

Modifier avec WPS Office

- المرأة واللغة (1997).
- ثقافة الوهم: مقاربات عن المرأة واللغة والجسد (1998).
- حكاية سحارة (1999).
- تأنيث القصيدة والقاريء المختلف (1999).
- النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية (2000).

  وهو موضوع الدراسة لهذا البحث.
- حكاية الحداثة في المملكة العربية السعودية (2002).
- الثقافة التلفزيونية (2004).
- نقد ثقافي أم نقد أدبي: مع د. عبد النبي اصطيف ضمن سلسلة حوارات لقرن جديد (2004).

Modifier avec WPS Office

التمهيد الثاني

التعريف بنظرية النقد الثقافي

من المناسب هنا إيراد دراسة موجزة[2]، تعطي تصوراً واضحاً لمعالم نظرية النقد الثقافي، وتبين على وجه الخصوص نظرة الدكتور الغذّامي إلى هذه النظرية:

((يرى بعض الباحثين في مجال النقد الأدبي أن النقد الثقافي ليس إلا افتتاناً بمشروع نقدي غربي، إذ يؤكد د. عبد العزيز حمودة أن "هناك مشروعا ً نقديا ً جديدا ً يجري الترويج له اليوم في أروقة المثقفين العرب هو النقد الثقافي الذي يمثل افتتانا ً جديدا ً بمشروع نقدي غربي تخطته الأحداث داخل الثقافة أو الثقافات التي أنتجته". (الخروج من التيه، سلسلة عالم المعرفة، ص351).

ويعود ظهور أولى ممارسات النقد الثقافي في أوروبا إلى القرن الثامن عشر. لكن تلك المحاولات المبكرة لم تكتسب سمات مميزة ومحددة في المستويين المعرفي والمنهجي إلا مع بداية التسعينات من القرن العشرين وذلك حين دعا الباحث الأمريكي فنسنت ليتش إلى "نقد ثقافي ما بعد بنيوي" تكون مهمته الأساسية تمكين النقد المعاصر من الخروج من نفق الشكلانية والنقد الشكلاني الذي حصر الممارسات النقدية داخل إطار الأدب كما تفهمه المؤسسات الأكاديمية "الرسمية"، وبالتالي تمكين النقاد من تناول مختلف أوجه الثقافة ولاسيما تلك التي يهملها عادة النقد الأدبي.

أما في اللغة العربية، فيرى سعيد البازعي وميجان الرويلي في كتابهما (دليل الناقد الأدبي، ص 305) أن النقد الثقافي، في دلالته العامة، يمكن أن يكون مرادفا "للنقد الحضاري" كما مارسه طه حسين والعقاد وأدونيس ومحمد عابد الجابري وعبد الله العروي. لهذا فهما يعرفان النقد الثقافي على أنه: "نشاط فكري يتخذ من الثقافة بشموليتها موضوعا ً لبحثه وتفكيره، ويعبر عن مواقف إزاء تطوراتها وسماتها".

ويمكن اعتبار د. عبد الله الغذّامي أول من حاول تبنّي مفهوم النقد الثقافي في معناه الحديث الذي حدده فنسنت ليتش واستخدم أدواته لاستكشاف عدد من الظواهر الثقافية العربية التي لم تستطع مختلف مدارس

---

(2) باختصار من مقال بعنوان: "النقد الثقافي والنقد الأدبي" للدكتور مسعود عمشوش، وقد أشار إلى منشأ النقد الثقافي وبعض أصدائه عربياً. وأرى أن هذا المقال من أفضل ما يلخص نظرية النقد الثقافي عند الدكتور الغذّامي.
تجد المقال على الموقع: http://www.geocities.com/yemenitta/maqal24.htm

Modifier avec WPS Office

النقد الأدبي السابقة التصدي لها.

يعرّف الغذّامي النقد الثقافي بأنه: ((فرع من فروع النقد النصوصي العام، ومن ثم فهو أحد علوم اللغة وحقول الألسنية معنيّ بنقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصيغه، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي وما هو كذلك سواء بسواء. ومن حيث دور كل منها في حساب المستهلك الثقافي الجمعي. وهو لذا معني بكشف لا الجمالي كما شأن النقد الأدبي، وإنما همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلا غي الجمالي، فكما أن لدينا نظريات في الجماليات فإن المطلوب إيجاد نظريات في القبحيات لا بمعنى عن جماليات القبح، مما هو إعادة صياغة وإعادة تكريس للمعهود البلاغي في تدشين الجمالي وتعزيزه، وإنما المقصود بنظرية القبحيات هو كشف حركة الأنساق وفعلها المضاد للوعي وللحس النقدي".(ص 83-84)

وإذا كان الدكتور الغذّامي يرى أنّ مجال النقد الثقافي هو النص، فهو في الواقع يعمد إلى تفجير مفهوم النص نفسه الذي يتمدد ليصبح بحجم ثقافةٍ ما بأكملها. ومن ثمّ فأن هذا النص، الذي "لم يعد نصاً أدبياً جمالياً فحسب، لكنه أيضا حادثة ثقافية" لا يُقرأ لذاته ولا لجماليته، وإنما يعامل بوصفه حامل نسق أو أنساق مضمرة يصعب رؤيتها بواسطة القراءة السطحية لأنها تتخفى خلف سحر الظاهر الجمالي. وبالتالي فمهمة القارئ/الناقد تكمن أساساً في الوقوف على أنساق مضمرة مرتبطة بدلالات "مجازية كلية" وليس على نصوص ذات دلالات صريحة (ص78-).

والغذّامي لا يرفض الدلالة المتداولة لكلمة النسق "ما كان على نظام واحد أو البنية"،(ص 76)، لكنه يؤكد أن هذه الكلمة تغدو في مشروعه النقدي "مفهوماً مركزياً يكتسب قيماً دلالية وسمات اصطلاحية خاصة". والنسق عنده لا يتحدد عبر وجوده المجرد بل من خلال وظيفته التي لا تتحقق إلا في وضع محدد ومقيّد. وذلك حين يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمر ومناقض للأول وناسخ له في نص واحد أو في ما هو في حكم النص. (ص77)

لذلك فالنقد الثقافي ـ كما ينظر إليه الغذّامي ـ يسعى إلى كشف حيل الثقافة في تمرير أنساقها تحت أقنعة ووسائل خاصة تتدثر بأغطية الجمال و البلاغة. وهذه الأنساق المضمرة التي يسعى النقدي الثقافي لفضحها، هي أساس الاستهلاك الثقافي الذي يحدد مدى جماهيرية نص ما واستمراريته.

وينظر الدكتور عبد الله الغذّامي في مشروعه النقدي هذا إلى الثقافة العربية كنص ضخم متنوع التكوينات والوجوه. ويرى أن السؤال الذي ينبغي

Modifier avec WPS Office

على القارئ/الناقد الإجابة عنه هو: كيف يمكن داخل نص/الثقافة العربية أن نقرأ بعض الأنساق التي تشكلت عبر القرون وتكوّن السمات المميزة لهذه الثقافة؟

كما يؤكد الغذّامي أن على الناقد أن يميّز بين السمات الإيجابية و السمات السلبية التي ينبغي التركيز عليها لأن هذا يقودنا إلى التعرف على عيوبنا الحضارية والعراقيل التي اعترضت مسيرة النهضة العربية. وقد اختار الغذّامي نسق "الفحل" الذي يؤكد أنه في الثقافة العربية قد انتقل من الشعر إلى مختلف نواحي الحياة. فصار لدينا، إلى جانب الشاعر الفحل: الفحل الا جتماعي والفحل الثقافي والفحل الإعلامي والفحل السياسي...".

ولكي يستطيع الغذ ّامي أن يصل إلى غايته تلك أي إلى قراءة الأ نساق المضمرة في الثقافة العربية لجأ إلى منهج القراءة التأويلية الذي استخدمه في كتاباته السابقة...

بالنسبة للمجاز مثلا ً، نجده قد تحول من القيمة البلاغية التي - في النقد الأدبي- تدور حول الاستعمال المفرد للفظة أو الجملة الواحدة إلى القيمة الثقافية التي يحتويها النص. وبهذا التحول يغدو المجاز ازدواجا ً د لاليا ً، ويـ ُقرأ على مستوى النص بأكمله الذي يحمل بعدين دلاليين، أحدهما حاضر وماثل في عناصره اللغوية الظاهرة، وثانيهما مضمر.

وهذا البعد الدلالي المضمر هو الفاعل والمحرك الخفي الذي يتحكم في سلوكنا العقلي والتذوقي، وأشكال تلقينا لهذه الظاهرة الثقافية أو تلك. و يطلق الغذّامي على هذا النمط من المجاز تسمية (المجاز الكلي) (ص67-71)

أما بخصوص العلاقة أو الفرق بين النقد الأدبي والنقد الثقافي، فمن الممكن البحث عن إجابات للأسئلة الآتية: هل في النقد الأدبي ما يعيبه أو ينقصه كي نبحث له عن بديل؟ هل يستطيع النقد الثقافي أن يكون بديلا ً عن النقد الأدبي؟ أو أن النقد الثقافي ليس إلا تسمية حديثة لوظيفة قديمة؟

بالنسبة لفنسنت ليتش فهو يؤكد، عند تناوله لطبيعة الروابط بين النقد الثقافي والنقد الأدبي أنّ هذين النقدين مختلفان على الرغم من وجود بعض نقاط الالتقاء والاهتمامات المشتركة بينهما. وبعكس بعض المهتمين الآخرين بالنقد الثقافي الذين يرون أن على النقد الثقافي أن يركز على تلك الظواهر التي يهملها النقد الأدبي مثل مظاهر الثقافة الشعبية أو الجماهيرية، ويبتعد عن الميادين الأدبية "المتعالية" كنظرية الأدب، يرفض فنسنت ليتش الفصل بين النقد الأدبي والنقد الثقافي، ويرى أن اختصاصيي الأدب يمكن أن يمارسوا النقد الثقافي دون أن يتخلوا عن اهتماماتهم الأدبية".

أما الدكتور عبد الله الغذّامي فيقول في محاضرة ألقاها في مطلع سنة

Modifier avec WPS Office

2002 في مؤسسة عبدالحميد شومان: "نحن لا نملك إلا أن ننسب النقد الأدبي إلى الأدب، وبالمقابل فإننا سننسب النقد الثقافي إلى الثقافة". كما يلاحظ الغذّامي أن النقد الأدبي الذي في الثقافة العربية قد ترعرع في أحضان البلاغة أصبح فناً في البلاغة يعنى في المقام الأول بجمالية النصوص و الوقوف على مكونات أدبيتها، أو كشف عوائقها.

كما يتهم د. عبد الله الغذّامي النقد الأدبي أنه، قديماً وحديثاً، لم يتعامل إلا مع النصوص التي تعترف المؤسسة الثقافية الرسمية بأدبيتها وجمالها واستبعد النصوص والظواهر الثقافية الأخرى التي لا تحظى باستحسان تلك المؤسسة التي وضعت معايير صارمة لتقنين ما هو جمالي وما هو غير جمالي. وقد أدى ذلك إلى إهمال ما هو مستحسن جماهيرياً مثل كتاب ألف ليلة وليلة ومثل الأغنية الشبابية والنكتة والشائعة.

ويرى الغذّامي أن تركيز النقد الأدبي على النصوص الأدبية "الرسمية" قد جعل منه قلعة أكاديمية معزولة وغير فاعلة بين عامة الناس. لهذا يرى الغذّامي أن النقد الأدبي الذي لم يلتفت إلا إلى الجماليات قد فشل في الكشف عن القبح الذي يستتر تحت الغطاء البلاغي. ومهمة النقد الثقافي الذي يسعى إلى رفع ستار البلاغة عن العمل الأدبي هي تبصيرنا بخطر "العيوب النسقية المختبئة تحت عباءة الجمالي".

وعلى الرغم من ذلك فما زال كثير من الباحثين، مثل عبد العزيز حمودة ، يرون في النقد الثقافي (مجرد) افتتان فئة من الأساتذة العرب بمنهج نقدي غربي لم يثبت فعاليته حتى داخل الثقافات الغربية التي أفرزته. ومنهم من لا يرى في النقد الثقافي إلا إحدى مظاهر العولمة))[(3)].

وبعد هذا العرض المجمل لنظرية النقد الثقافي، فإني أريد أن أقف وقفات تأملية، أستشرف من خلالها بعض الجوانب التي تحتاج إلى تنبه وتأمل، وهذا ما سيأتي في المطلب الثاني.

---

(3) باختصار من مقال بعنوان: "النقد الثقافي والنقد الأدبي" للدكتور مسعود عمشوش.
تجد المقال على الموقع: http://www.geocities.com/yemenitta/maqal24.htm

Modifier avec WPS Office

المطلب الأول: الثقافة العربية والشعر

نظراً لأن عنوان الكتاب هو "النقد الثقافي" فإنه من المهم الوقوف عند مصطلح "ثقافة" والوقوف عند المراد بـ "ثقافتنا" و"الثقافة العربية".

وهذه النقطة جوهر البحث والدراسة، فالثقافة تتعلق بالبحث من جانبين: كونها مستند الناقد، فهو ينقد وفق معاييره الثقافية، والجانب الثاني إجرائية النقد الثقافي، فهو يُعنون بقراءة في أنساق الثقافة.

ولعله من المفيد بداءة الوقوف على موقف الدكتور الغدّامي بخصوص تحديد هوية المثقف، مَن هو المثقف، ومن الذي يُحرم من لقب المثقف؟ إذ يقول في ذلك الدكتور الغدّامي: ((إما أن يكون المثقف حداثياً، أو لا يكون مثقفاً !))[4]

فهذا التصريح يضيء للقارئ الطريق، فيعرف ويستشرف نقاط النقاش مع الدكتور الغدّامي.

ومن خلال تأملي في مجمل الأفكار المطروحة في كتاب "النقد الثقافي" وجدت جوهر النقاش يرجع إلى ضرورة تحديد الهوية الثقافية، وعلى وجه الخصوص الإجابة على سؤال: هل للإسلام علاقة بهويتنا الثقافية ؟ أم لا؟ وهل جاء الإسلام بشيءٍ يشبه الثقافة أو يتعلق بالثقافة؟ وهل غيّر ا لإسلام شيئاً في ثقافة العرب؟ فقبل ظهور الإسلام كان للعرب ثقافة، ثم بعد ا لإسلام تمت إضافة شيء ما إلى ثقافة العرب؟ وماذا لو قال قائل: إن الإسلا م: ثقافة متكاملة شاملة مثالية. هل يُعد قوله صواباً أم خطأً ؟ أم هو صواب بميزان رجعي! خطأ بميزان حداثي؟!

لعلك تجد إجابة بخصوص الأثر الثقافي للإسلام، في ما ذكره الدكتور الغدّامي حيث قال:

((لقد انتقلت الرسالة الثقافية من فحولة القبيلة إلى فحولة الفرد ... غير أن مجيء الإسلام كان حلا ً **للإشكال المعاشي والقيمي، أما النسق الثقافي فلم يكن إلا خطاباً آخر**، ورث قيمة القبيلة وحوّلها إلى قيم فردية أو لا ً، ثم تحولت عبر انغراسها في النسيج اللغوي إلى قيم نمطية للشخصية الثقافية للإنسان العربي.

وبما أن النسق هو نسق التأثير لا نسق الإقناع، فإن النفس العربية قد جرى تدجينها لتكون نفساً انفعالية تستجيب لدواعي الوجدان أكثر من استجابتها لدواعي التفكير، وسارت الذات العربية كائناً شعرياً تسكن **للشعر** و

---

(4) صحيفة عكاظ، العدد (7412) في (1407/2/10هـ) نقلا ً عن "الحداثة في ميزان الإسلام" عوض بن محمد القرني. (1408هـ). (ص 62-63).

Modifier avec WPS Office

لا تتحرك إلا حسب **المعنى** الشعري الذي تطرب له غير عابئة بالحقيقة، وما كانت الحقيقة قط قيمة شعرية، وبالتالي فإنها لن تكون قيمة ثقافية، طالما أن **شعرية الخطاب هي اللب اللغوي والقيمي لثقافتنا**))[5].

يظهر لك من هذا النقل رؤية الدكتور الغذّامي للمؤثر والمؤسس لثقافة العرب، مع إشارته لمجيء الإسلام، ولكن - من وجهة نظره -لم يكن للإسلام سوى أثرٍ في الجانب المعاشي والقيمي، أما الجانب الثقافي فقد كان شيئاً آخر، فقد كان الشعر وظل هو المهيمن المؤثر فيه.

وتجد الدكتور الغذّامي يقلص من أثر الإسلام مقابل الأثر الثقافي للشعر إلى أضيق الحدود، فيجعله مقصوراً على فترة ضيقة جداً وهي فترة صدر الإ سلام – قبل العهد الأموي- فيقول عند حديثه عن أنواع الخطابة: ((الخطابة الوظيفية، وهي الخطب العملية التي صاحبت الدعوة الإسلامية، وكانت فعالة وإنجازية، وهي العلامة الثقافية التي صبغت الفترة الإسلامية الأولى، حيث امتزج القول بالفعل، وتقدم الخطاب الإنجازي، في حين تراجع الخطاب الشعري، وكان الإنجاز حينذاك هو علامة المرحلة، حيث الفتوحات والتحقق التاريخي العظيم. **غير أن هذه فترة استثنائية نادرة، وما جاء بعدها كان عودة للقيم الشعرية في الخطاب**))[6].

ويقول أيضاً: ((والأمة ذات التاريخ العظيم في فتوحاتها المجيدة، **لم تحقق فتوحات مماثلة في المجال الفكري والعقلي والاجتماعي**، وهو ما كان يُفترض في أمة تحمل المعاني الإسلامية الأولى في الإنسانية والعدل و الحرية، وهذه كلها صيغ إسلامية جوهرية، لا تمثلها ولا تتمثلها الشخصية الا جتماعية أو الثقافية العربية ...))[7].

إن وصف الأمة الإسلامية بالفشل في المجال الفكري والعقلي والا جتماعي أمر في غاية الخطورة، خصوصاً وأن المقصود بالأمة هنا - ذات التاريخ المجيد في فتوحاتها- أمة صدر الإسلام، إذ يؤكد الدكتور الغذّامي أن فترة صدر الإسلام – فقط - هي الفترة الاستثنائية النادرة من تاريخ الأمة، و التي تحققت فيها الإنجازات والفتوحات، مما يعني أن ذلك العصر المبارك الذي استضاء بنور الوحي وشهد التنزيل وفيه كان الرسول : لم يقدم نجاحاً فكرياً ولا عقلياً ولا اجتماعياً !

وإني أتساءل: هل شهدت البشرية حضارة أظهر أثراً على البشرية من حضارة الإسلام؟! وهل كان في تاريخ الأمم فتحاً فكرياً واجتماعياً وأخلاقياً

(5) "النقد الثقافي" (ص 104-105).
(6) "النقد الثقافي" (ص 103).
(7) "النقد الثقافي" (ص 116).

Modifier avec WPS Office

أوضح مما امتن الله به على أمة العرب ببعثة النبي الكريم ونزول الوحي المبين؟!

إن الظن بالدكتور الغذّامي، وبكل مسلم ومسلمة، أن يستشعر نعمة الله العظيمة ومنته الكريمة ببعثة النبي ونزول القرآن العظيم عليه.

قال تعالى: ﭽ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﭼ[آل عمران]

فتأمل ما ذكره الله من النعمة العظيمة ببعثة النبي محمد ونزول القرآن عليه، وتلاوته آياته، والأثر العظيم لذلك من تزكية النفوس وتعليمها الكتاب والحكمة، وبيان ما كانوا عليه قبل هذه النعمة، من الضلال المبين.

فلا شك أن أمة العرب – خصوصاً- أصبحت في شأن آخر، فتغير حالها مظهراً ومخبراً ببعثة النبي الكريم وظهور رسالة الإسلام ﭽ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﭼ [الطلاق: ١٠ – ١١].

فبعد أن كان العرب أمة مشرذمة، لا ذكر لها بين الأمم، ولا محل لها بين الحضارات، سياستها العامة: السلب والنهب، وأكل القوي الضعيف، وثقافتها الدينية: عبادة الأحجار والأشجار، ومن أخلاقها: وأد البنات، وفعل الفواحش قائلين: ﭽ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﭼ [الأعراف: ٢٨]. فإذا بأمة العرب في سنوات معدودة تظهر على أمم الدنيا، وتقود حضارات الأمم، وتسوس ساسة العالم، برسالة: (أسلم تسلم! وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأ ريسيين) [8].

فمن أجابهم أمِن، ومن صد عن سبيل الله خاب وخسر وندم ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭼ [التوبة].

وإن الواجب على الدكتور الغذّامي، وكل مسلم ومسلم، بل والبشرية جمعاء: الفرح بهذه النعمة العظيمة، ومعرفة قدرها، وإيفائها حقها، تحقيقاً لقوله تعالى: ﭽ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﭼ[يونس: ٥٨]، لا أن يُقلَل من شأنها ويزهد في خيرها ويحط من قدرها ، والله المستعان.

وإني سأسلط الضوء فيما يلي على مكانة الشعر من ثقافة العرب، وموقف الإسلام من الشعر، كما هو ظاهر في نصوص الشرع، وفي المقابل كما صوّره الدكتور الغذّامي.

---

(8) من رسالة رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، أخرجها البخاري: (1/7/ح7) ومسلم: (3/1393/ح1773).

Modifier avec WPS Office

النقطة الأولى: مكانة الشعر من ثقافة العرب.

لماذا الشعر؟

وما علاقة الشعر بالنقد الثقافي؟

لا تتعجب إذا علمت أن لب القضية هو الشعر! وجل الخطب والخطاب إنما هو الشعر! فقد جعل الدكتور الغذّامي من الشعر خصمه الصامت الناطق، بل هو خصم الأمة، وهو خصم الحداثة وداءها! وهو ما يتحمل الجريرة و التبعة، تاريخياً وحداثياً، ماضياً وحاضراً ومستقبلا ً، إزاء كل رزية.

إن القارئ لكتاب "النقد الثقافي" يهوله ما يرى من الاتهام النقدي المسلط على الشعر، حتى كأنه المقصود من الكتاب ليس إلا، فالشعر هو السبب في انحطاط العرب وتخلفهم في جميع المجالات – المتخلفين فيها فقط- وهو السبب أيضاً في فشل المشروع الحداثي!

وإليك مقتطفات تبين لك أني لم أف الأمر وصفه، وليس الخبر ك المعاينة!

فقد افتتح الدكتور الغذّامي مقدمة كتابه بطرح تساؤلات تنبيك عن مضمون الكتاب، فجاء في تساؤلاته:

((هل جنى الشعر العربي على الشخصية العربية ؟

هل هناك أنساق ثقافية تسربت من الشعر وبالشعر لتؤسس لسلوك غير إنساني وغير ديموقراطي، وكانت فكرة "الفحل" وفكرة "النسق الشعري" وراء ترسيخها؟ ومن ثم كانت الثقافة، بما أن أهم ما فيها هو الشعر، وراء شعرنة الذات وشعرنة القيم؟

لقد آن الأوان لنبحث في العيوب النسقية للشخصية العربية المتشعرنة، والتي يحملها ديوان العرب، وتتجلى في سلوكنا الاجتماعي و الثقافي بعامة))[9].

وتجده كثيراً ما يصف الأمة العربية بأنها: الأمة الشاعرة، واللغة العربية: بأنها اللغة الشاعرة، والذات العربية بأنها الذات المتشعرنة.

قال الدكتور الغذّامي : ((إن كتابنا هذا سيزعم أن ما اكتسبناه من السمات الشعرية قد طبع ذاتنا الثقافية والإنسانية بعيوب نسقية فادحة! ما زلنا نُن-تجها، ونعيد إنتاجها، ونتحرك حسب شرطها، ولعلها هي المسؤولة عن كثير من عوائقنا الحضارية، لا سيما وأن الشعر هو الخطاب الذي احتكر مشروع التحديث عندنا، ولذا لن نفلح لأن الشعر ذاته متلبس تلبساً نسقياً لم

(9) "النقد الثقافي" (ص 7).

Modifier avec WPS Office

نبذل جهداً كافياً لكشفه ...

إن الشعر هو المخزن الخطر لهذه الأنساق [المضمرة] وهو الجرثومة المتسترة بالجماليات ... فرَحُنا بأنّا الأمة الشاعرة واللغة الشاعرة: خدعة نسقية لم نع ضررها!))[10].

وقال الدكتور الغذّامي : ((... ومرّ أخطر خطاباتنا الثقافية الذي ننتسب إليه، **ولم يكن لنا علم سواه**، مر دون تمعن في أنساقه وعيوبه النسقية، مما يعني أننا لم ندرس **المكون الأول لشخصيتنا الثقافية والسلوكية**))[11].

وذكر النسق العربي كله، وقال عنه: ((وهو نسق كان الشعر وما زال هو الفاعل الأخطر في تكوينه أولا ً، وفي ديمومته ثانياً))[12].

وقال الدكتور الغذّامي: ((وفي الشعر العربي جمال وأي جمال، ولكنه أيضاً ينطوي على عيوب نسقية خطيرة جداً، نزعم هنا أنها كانت السبب وراء الشخصية العربية ذاتها.

فشخصية الشحاذ والكذاب والمنافق والطماع، من جهة، وشخصية الفرد المتوحد فحل الفحول ذي الأنا المتضخمة النافية للآخر، من جهة ثانية، هي من السمات المترسخة في الخطاب الشعري، ومنه تسربت إلى الخطابات الأخرى، ومن ثم صارت نموذجاً سلوكياً ثقافياً يعاد إنتاجه، بما أنه نسق منغرس في الوجدان الثقافي...))[13].

وقال : ((وليس من شك في أن الشعر هو أهم المقومات التأسيسية للشخصية العربية، ورثنا حسناته وورثنا سيئاته، وفي بحثنا هذا سوف نسعى إلى تشريح الأنساق الثقافية التي نرى أنها هي المكونات الأصلية للشخصية العربية التي صاغها الشعر صياغة سلبية/ طبقية أنانية، وتخلق من ورائها أنماط سلوكية وثقافية ظلت هي العلامة الراسخة في قديمنا وحديثنا)) [14].

وتعليقاً على ما سبق أقول:

يظهر جلياً مبالغة الدكتور الغذّامي (الفادحة) في تصوير مكانة الشعر في تكوين ثقافة العرب والتأثير فيها، ونشأتها وديمومتها! وزعمه أن الشعر هو: "علمنا الذي ليس لنا علم سواه"!

فأين العلم الذي ورّثه نبينا ؟!

---

(10) "النقد الثقافي" (ص 87) وحديثه هنا عن الأنساق المضمرة في الشعر، لذا أضفت كلمة [مضمرة] ليتضح المعنى.
(11) "النقد الثقافي" (ص 89).
(12) "النقد الثقافي" (ص 93).
(13) "النقد الثقافي" (ص 93-94).
(14) "النقد الثقافي" (ص 94).

Modifier avec WPS Office

أليس هو القائل: (إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً و لا درهماً، إنما ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر)[15] ؟!

أين موقع الوحي الإلهي المنزل من ثقافتنا ؟!

أين جهود علماء الأمة على مر التاريخ الإسلامي؟!

أين تراثنا الثقافي المتفرع عن مصادر الوحي والمميز لنا والمتميز عن سائر الأمم؟!

إنك لو بحثت فقط عن تراثنا الثقافي في تفسير القرآن لوجدت بحراً لا ساحل له، ولو بحثت عن جهود سلفنا في تدوين السنة وشرحها والعناية بأسانيدها ودراستها ورجالها لما استطعت لذلك استيعاباً.

ومما يُذكر هنا أن الدكتور الغذّامي ذكر علم العلل في الحديث، فقال: ((لا بد أن نوجد نظريات في (القبحيات) أي في عيوب الجمالي وعلله، وهي نوع من علم العلل – كما في مصطلح الحديث، الذي يبحث عن علل في المتن أو في السند أو فيهما معاً، وفي ذلك جهود ضخمة نحتاجها كمثال نقدي حي ومجرب))[16] .

وعلم العلل ليس بحثاً عن (قبحيات) في السند أو المتن، حاشا علماء الأمة من هذا الوصف القبيح، ولكن مقصدي الاستشهاد باعتراف الدكتور الغذّامي بوجود جهود ضخمة للعلماء في باب العلل وحده، فهل كان علم علل الحديث ناتجاً عن الشعر؟! وهل أسسه الشعر؟!

ومن مبالغات الدكتور الغذّامي زعمه أن سلوكياتنا وأخلاقنا ليس لها مصدر إلا الشعر، وأنها انعكاسات ونتائج للشعر! فهل جاء الإسلام خالياً من الأخلاق والآداب؟! وهل ما يشاهد من سلوكياتنا وأخلاقنا مبتور الصلة بآداب الإسلام، وليس هو إلا موروث كوّنه الشعر وشكله ولوّنه؟!

إن دعوى الدكتور الغذّامي نسبة قيمنا الثقافية وسلوكياتنا وأخلاقنا إلى الشعر، ثم تسليط النقد الجامح إلى الشعر: دعوة صريحة لنبذ كل ما ورثناه من قيم ثقافية وسلوكيات، لكنه رام تمرير هذه الدعوة بإقحام الشعر هنا، حتى يسلم من مغبة الطعن في مصادر ثقافتنا وهويتنا، فليس المنتقد هو الشعر – الذي لا باكي له – وإنما المنقود هو القيم الثقافية والتي نسبها الدكتور الغذّامي زوراً إلى الشعر!

فإن قيل للدكتور الغذّامي : إنك تطعن في قيم الأمة الثقافية و

---

(15) أخرجه أبو داود (3/317/ح3641)، والترمذي (5/48/ح2682)، وابن ماجه (1/81/ح223) وصححه الألباني في تعليقه على سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه.

(16) "النقد الثقافي" (ص 59-60).

Modifier avec WPS Office

السلوكية، قال: إنما طعنت في الشعر ليس إلا، وهو المكون الأول لقيم الأمة الثقافية والسلوكية، وليس للأمة علم سواه!

لقد جعل الدكتور الغذّامي ((المكون الأول لشخصيتنا الثقافية و السلوكية)) هو الشعر، ولا شك أن المكون الأول لشخصيتنا الثقافية و السلوكية إنما هو الإسلام. فأظهر أوصاف هذه الأمة أنها: أمة الإسلام! أما أن يقال: بأنها الأمة الشاعرة و(المتشعرنة)، فهذا تلبيسٌ مكشوفٌ ما وراءه، وبعدٌ عن الجوهر والأساس, إلى ما لا قيمة له في التعبير عن هوية الأمة.

وتسخط الدكتور الغذّامي على القيم الثقافية والسلوكية والاجتماعية الموجودة في الأمة اليوم أمر جد خطير، وإنه وإن كان قد جعل المصدر لهذه القيم والمظاهر هو الشعر، فإن الحل في نظره هو **الحداثة** ليس إلا، فحتى يهدم المطالبة بالتمسك بما صلح عليه أول هذه الأمة من القيم والأخلاق، جعله منسوباً إلى الشعر ومؤسساً به، فيكون لدعوى التخلص منه مبرر، في حين أن مما لا شك فيه أن المصدر لقيم الأمة وسلوكها إنما هو الإسلام وشرائعه وقيمه المستمدة من الوحي الإلهي.

وما كان في سلوك الأمة اليوم من خطأ وتوجه غير مرضي فإنما هو للبعد عن شرائع الإسلام وقيمه، وإن كان من دعوة لتقويم شأن الأمة فلن تكون إلا بالتمسك بما قوّم أولها، فلن يصلح آخر الأمة إلا ما أصلح أولها.

وإن الدكتور الغذّامي قد أشار إلى ((تاريخ الأمة العظيم في فتوحاتها المجيدة)) ولكنه جعل ذلك فترة استثنائية نادرة في تاريخ الأمة، مثلها عصر النبوة والخلافة الراشدة، ثم اختفى بعدها أثر الإسلام، واختفى تأثيره، وعاد العرب إلى ما كانوا عليه قبل الإسلام رازحين تحت وطأة الشعر، وهيمنته الثقافيه!

وهذا يدعونا للحديث عن النقطة الثانية: موقف الإسلام من الشعر.

Modifier avec WPS Office

النقطة الثانية: موقف الإسلام من الشعر.

لا يخفى على ناظر في تاريخ العرب عنايتهم الظاهرة باللغة والفصاحة والقيم البلاغية، ومنها الشعر.

قال ابن العبري[17]: ((فأما علم العرب الذين كانوا يفاخرون به: فعلم لسانهم وأحكام لغتهم ونظم الأشعار وتأليف الخطب، وكان لهم مع هذا معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها ... فهذه كانت حالهم في الجاهلية))[18].

وقد جاء الإسلام مخاطباً هذه الروح لدى العرب، ونزل القرآن بلسانهم، وجاء معجزاً في بيانه، فكانت معجزة الإسلام الخالدة مطابقة لأعلى اهتمامات العرب، الأمر الذي جعلهم يشهدون بإعجاز هذا الكتاب، بلسان الحال أو المقال، آمنوا به أو لم يؤمنوا.

وأستشهد هنا بشاهدين، أولهما مؤمن، والثاني كافر.

فأما المؤمن فما جاء عن الصحابي الجليل الطفيل بن عمرو أنه (قدم مكة ورسول الله بها، فمشى إليه رجال قريش، وكان الطفيل رجلا ً شريفا ً شاعرا ً لبيبا ً، فقالوا له: إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذي بين أظهرنا: فر ّق جماعتنا وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر! يفرق بين المرء وبين أبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك، ما قد دخل عليك فلا تكلمه ولا تسمعن منه.

قال: فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئا ً ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفا ً فرقا ً من أن يبلغني شيء من قوله!

قال: فغدوت إلى المسجد فإذا رسول الله قائم يصلي عند الكعبة، قمت قريبا ً منه، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاما ً حسنا ً. فقلت في نفسي: واثكل أماه! والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني من أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟! فإن كان الذي يأتي به حسنا ً قبلت، وإن كان قبيحا ً تركت.

قال: فمكثت أياما ً حتى انصرف رسول الله إلى ثنية، فاتبعته حتى إذا حل منه دخلت عليه فقلت: يا محمد إن قومك قالوا لي كذا وكذا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لئلا أسمع قولك، ثم أبى

---

(17) أبو الفرج غريغوريوس بن أهرون بن توما الملطي، المعروف بابن العبري: مؤرخ سرياني مستعرب، من نصارى اليعاقبة. توفي (685هـ). انظر: "الأعلام للزركلي" (117/5).

(18) "مختصر تاريخ الدول" لابن العبري. (ص47) ضمن المكتبة الشاملة.

Modifier avec WPS Office

الله إلا أن يسمعنيه، فسمعت قولاً حسناً، فاعرض علي أمرك.

قال: فعرض رسول الله علي الإسلام وتلا علي القرآن، فلا والله! ما سمعت قولاً قط أحسن منه! ولا أمراً أعدل منه! فأسلمت وشهدت شهادة الحق ...)[19].

والشاهد الثاني ما جاء (أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم! إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً. قال: لم ؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله، قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً. قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك إنك منكر له، أو إنك كاره له. قال: وماذا أقول؟! فوالله! ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجز ولا بقصيدة مني، ولا بأشعار الجن! والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لـ ِقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وأنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم [ما] تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني حتى أفكر. فلما فكر قال: هذا سحر يؤثر! يأثره عن غيره. فنزلت {ذرني ومن خلقت وحيداً})[20].

يتبين من هذين الشاهدين مكانة الأدب والفصاحة والشعر لدى العرب، وعظم عنايتهم بهذا الجانب، فالعرب أمة أديبة بليغة، وقد جاءهم القرآن مخاطباً فيهم هذا الجانب الذي تميزوا به، فأتاهم بما يتحداهم ويعجزهم، بعلو بلاغته وحسن تركيبه وأسلوبه، وتحداهم الله أن يأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور من مثله، أو بسورة واحدة، فعجزوا، وأثبت الله عجزهم وأقامه شاهداً على صدق كتابه، فقال جل من قائل: ﭽ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭼ[الإسراء: ٨٨].

وإن الإسلام مع كونه في أصله رسالة للعرب، نزل كتابه بلسانهم، وبُعث رسوله منهم، فما كان الإسلام ليذر أحد أخص اهتمامات العرب دونما ذكر وبيان، أعنى بهذا: الشعر، فإنك تجد في القرآن اهتماماً خاصاً بيناً بهذا الأمر، لا يخفى على ذي بصيرة.

ونظراً لكون الدكتور الغذّامي يدرس ويحلل ثقافة العرب، ويؤرخ ما مرت به من مراحل وتغيرات، ولكونه عد الشعر أساس ثقافة العرب، فإنه لا بد أن يبين موقف الإسلام من الشعر.

ولكنك تجد بيانه باهتاً خافتاً متهافتاً، سطحياً هامشياً، لا يفيد القارئ

(19) "تاريخ دمشق" (14-13/25).

(20) أخرجه الحاكم ف(550/2/ح3872) وقال: ((هذا حديث صحيح الإسناد على شرط البخاري ولم يخرجاه)).

Modifier avec WPS Office

المتحري للصواب، والمتشوف لمعرفة موقف دينه من القضية الكبرى قضية الشعر! بل إن القارئ لكتاب الدكتور الغذّامي سيخرج بفهم مغلوط منتكس في هذه المسألة الجوهرية لتحديد هويتنا الثقافية.

إن الدكتور الغذّامي قد توصل إلى التحول الجذري الذي وقع في ثقافة العرب! والذي امتد أثره ليطالنا في زماننا الحاضر ويبلور ثقافتنا، فهل يا ترى كان ذلك التحول هو نزول الوحي بلسان العرب؟ أو خروج الرسول العربي الأمي منهم؟

كلا، بل هذا التحول – الجذري- بينه الدكتور الغذّامي بقوله: ((حدث تحول مبكر وجذري في الثقافة العربية الجاهلية، تغير فيه الموقف العام من الشاعر: فالشاعر كان صوت القبيلة، ولكنه تخلى عن دوره هذا، ليهتم بمصلحته الخاصة أكثر، وارتبط هذا بظهور فن المديح المتكسب به ...))[21].

وقال مبيناً أهمية هذا التحول وأثره: ((أشرنا إلى حدوث تحول ثقافي جذري وقع في مرحلة ما من مراحل التحولات في العصر الجاهلي، ونتج عنه أن الشعر تحول من كونه صوتاً للقبيلة، وتخلى عن هذا الدور، ولهذا التحول مدلوله الثقافي النسقي، إذ إن الشعر في ذلك الوقت لم يكن مجرد فن من الفنون أو واحداً من [الخطابات]، لقد كان هو (كل) شيء، فهو: علم قوم لم يكن لهم علم سواه، كما هي مقولة عمر بن الخطاب، وهو ديوان العرب، أي سجلهم التاريخي والثقافي، وحينما يتحول هذا الخطاب الذي هو خطاب الشخصية القومية للأمة، حينما يتحول من متحدث باسم الجماعة إلى متحدث باسم الفرد، فإن ذلك يعني أن الخطاب الثقافي كله صار خطاباً ذاتياً وفردياً، وسيعزز القيم الفردية والمصلحة الخاصة.

ولقد تصاحب هذا التحول مع نشوء فن المديح، والمديح والفردية وجهان لعملة واحدة، إذ لا يمكن للمداح إلا أن يكون فردياً متمصلحاً، ولا بد أن يكون كذاباً ومبالغاً، ولا بد أن يصور الباطل في صورة الحق، ولا بد أن ينتظر مقابلا ً مادياً، كثمن لكذبه البليغ.

إذا وقع هذا مع الفن الذي هو ديوان الأمة، وعلمها الذي لا علم لها سواه، فهو – أولا ً – سيطبع الشخصية الثقافية بتلك السمات التي اكتسبها هذا الفن من مهنته الجديدة، ثم إنه – ثانياً – سيخلق طبقة ثقافية جديدة تتحلى بتلك السمات. وهذه طبقة أخذت بالتشكل منذ ذلك الزمن، وعبرها جرى ثقافياً اختراع (الفحل) الذي ابتدأ فحلا ً شعرياً، غير أنه تحول ليكون فحلا ً ثقافياً، يتكرر في كافة الخطابات والسلوكيات الاجتماعية والثقافية والسياسية.

(21) "النقد الثقافي" (ص 100).

Modifier avec WPS Office

وما ذاك إلا لأن الشعر في الأصل هو علمنا وديواننا، وما يحدث فيه يصبغ شخصيتنا ويؤثر في تكوينها وتوجيه سلوكها، وسيكون مسؤولا ً عن سماتنا الشخصية، بمثل ما هو مستودع ثقافي لهذه السمات.

ومرور ذلك من دون نقد، هو ما جعل الشعرية علة ثقافية تتحكم فينا، من دون مساءلة أو مواجهة، وظل ذلك يحدث من زمن الجاهلية، وانبعاثها النسقي في زمن بني أمية، وتعزز ذلك زمن التدوين، إلى يومنا هذا، وكل القيم التي اصطنعها الشعر تحولت لتكون قيماً للذات العربية الثقافية ولمنظومة السلوك الاجتماعي العربي، ولقد تشعرنت الذات، وتشعرنت القيم معها ...))[22].

ثم عاد ليقول بعدها: ((حدث تطور ثقافي خطير في أواخر العصر الجاهلية، تغير معه النسق الثقافي العربي منذ ذلك الوقت إلى اليوم، وتحولت النحن إلى الأنا، مثلما تحولت القيم من بعدها الإنساني إلى بعد ذاتي نفعي أناني، وتحول الخطاب الثقافي إلى خطاب كاذب ومنافق، **وهو أخطر تحول حدث في الثقافة العربية** وأثر تأثيراً سلبياً. ذلك هو ظهور شاعر المديح وثقافة المدائح ...

هذا تحول ثقافي له آثاره في ثقافتنا، وحدوثه في أواخر العصر الجاهلي جعله هو النموذج المحتذى، حينما صارت العودة إلى القيم الثقافية الجاهلية مع مطلع العصر الأموي، وهي العودة التي رسخت الأعراف الجاهلية ، وأدت إلى تحولها إلى أنساق ثقافية راسخة ومتجذرة، وتخلق عنها أنماط سلوكية وأعراف ثقافية ...))[23].

مع هذا التقرير والطرح يتبادر السؤال لذهن القارئ: ما موقف الإسلام من الشعر؟

فيأتيه تقرير الدكتور الغدّامي في هذا الجانب، لا يشفي عليلا ً، ولا يروي غليلا ً، بل هو في حد ذاته مما يزيد الأمر سوءاً والطين بلة!

فقد استشهد الدكتور الغدّامي بحديث: (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يَرِيَه خير من أن يمتلئ شعراً)[24].

ثم قال: ((هذا أول موقف مضاد للشعر، ولهذا الموقف أثر في الخطاب الثقافي والتدويني))، ثم ذكر أمثلة على ذلك من مقولات: الجاحظ، والثعالبي،

---

(22) "النقد الثقافي" (ص 118-119).
(23) "النقد الثقافي" (ص 143-144).
(24) وعزاه إلى "العمدة" لابن رشيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (31/1) وقال الدكتور الغدّامي : وانظر صحيح البخاري: كتاب الأدب (87).
والحديث بنحوه في صحيح البخاري: (2279/5/ح5803) وعند مسلم: (1769/4/ح2257).

Modifier avec WPS Office

والأصمعي، وما أثر عن بعض الشعراء، كالفرزدق، والمتنبي، ثم قال:

((هذه ليست سوى أمثلة على آراء منتشرة ومبثوثة في التراث: لا تضع الشعر في موضع رفيع، ويبدو عليها الإحساس بالمشكل الشعري، غير أن هذا لم يتطور إلى نظرية ناقدة للخطاب الشعري، إنها لم تتطور إلى نظرية نقدية أو حتى إلى وعي نقدي (!) ، لأن المؤسسة الثقافية الشعرية كانت أقوى وأنفذ (!) ، فالشعر: علم العرب الذي ليس لهم علم سواه – كما قال عمر بن الخطاب[25] وهو توصيف موضوعي صادق يصف الحال الثقافية للعرب، مما جعل الشعر ديوان العرب وسجل وجودها الإنساني والتاريخي، وبما إنه كذلك فلا مفر من حث الناس على تعلمه، كما فعل عمر في رسائل إلى بعض ولاته، وكما فعل ابن عباس الذي جعل الشعر أحد مصادر تفسير الآيات القرآنية، وهذا لم يجعل الشعر مصدراً علمياً وتاريخاً فحسب، بل جعل له قيمة أخلا قية، بما إنه ديوان المآثر وسجل الأخلاق. وهذا حوّل الشعراء إلى نماذج بشرية تحتذى أقوالهم، ومع الأقوال ستأتي الأفعال أيضاً لتكون نموذجاً سلوكياً يستعاد إنتاجه، وسيتخذ كل قول شعري وكل مسلك شاعري صفة عربية، مذ كان الشعر ديوان العرب، أي أنه صورة العربي النسقية والثقافية، ومن ثم فإن الشعراء سيصبحون أمراء الثقافة (أمراء الكلام كما قال الخليل بن أحمد) وستكون الذات العربية ذاتاً شعرية، وستكون القيم الشعرية هي القيم الثقافية وقيم السلوك الاجتماعي، وهذا ما حدث فعلا ً حيث صار الشعر هو المؤسسة الثقافية العربية، وتمت شعرنة الذات العربية، وشعرنة الخطاب العربي))[26].

وقال الدكتور الغذّامي : ((ونحن نشهد ونرى أن عصر الفتوحات الإسلا مية لم يكن عصراً شعرياً، وإنما هو عصر الإنجاز، مما يشير إلى أن الشعر والإ نجاز شيئان متغايران. وحينما ركن العرب للراحة والسكون عادوا إلى الشعر – حسب شهادة ابن سلام الجمحي- وابتدأت العودة إلى ثقافة الجاهلية وأنساقها الشعرية المتجذرة في الوجدان ، والتي شبت ونمت مع بني أمية ثم بني العباس ...))[27].

ونجد أن الدكتور الغذّامي انتقد جانبين منهجيين في الشعر، هما: عدم الفاعلية، وعدم العقلانية، فكان مما قال في حديثه عن طبيعة الشاعر الشحاذ: ((غير أن هذا المتعالي هبط إلى أعمق أعماق الضمير الثقافي، وتولى صياغة الذات الثقافية والسلوكية، وأنتج نُسخاً لا تحصى من النماذج المتشعرنة ... ومن داخل هذا الفراغ الذي أهم سماته اللا فاعلية واللا عقلانية

---

(25) عزاه إلى "العمدة" (27/1).
(26) "النقد الثقافي" (ص 97-98).
(27) "النقد الثقافي" (ص 115).

Modifier avec WPS Office

، يتسلل للثقافة سادة من الأشباح الثقافية يحتلون الفضاء الخيالي و المجازي للأمة ويصنعون نماذجنا العليا...))[28].

وذكر الدكتور الغذّامي وجود نقد لعدم فاعلية الشعر في القرآن الكريم، فقال: ((ومع أن الشعراء يقولون مالا يفعلون، فإن اللافاعلية هنا هي إحدى عيوب الخطاب، لأنها تسلب من اللغة قيمتها العملية إذ تفصل بين القول و الفعل، كما أنها ترفع عن الذات مسؤوليتها عما تقول، **ولذا جاء ذم الشعر الذي هذه صفته في القرآن الكريم**، ولو اقتصر الأمر على الشعر كتجربة جمالية لما صار في الأمر ما يزعج، غير أن ارتباط الشعر بكونه علم العرب الذي لا علم لهم سواه، وبكونه ديوان المآثر ومدرسة الأخلاق، فإن السمات النسقية تظل تتسرب من هذا الديوان وتتغلغل في نسيجنا الذهني والثقافي، ونقوم بإعادة إنتاج هذه النماذج ...))[29].

وتعليقاً على ما سبق أقول وب‌الله التوفيق:

إن بيان الدكتور الغذّامي لموقف الإسلام من الشعر جاء في غاية الوهن ، بل خرج بنتيجة مغلوطة خلاف ما عليه الأمر في واقعه.

فإنه لا يخفى على عامي من عوام المسلمين أن في القرآن الكريم سورة اسمها سورة: "**الشعراء**"! وأن هذه السورة تحدثت عن الشعراء بكلام مبين، فعممت ووصفت واستثنت، فقال تعالى: چۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئې ئى ئى ئى ی ی ی ی چ[الشعراء: ٢٢٤ – ٢٢٧].

إن وجود سورة من سور القرآن - المئة والأربع عشرة- باسم سورة الشعراء له دلالته الظاهرة على اهتمام القرآن بهذا الجانب المهم من ثقافة العرب.

وإن العجب من الدكتور الغذّامي حيث يشير إلى آية { ې ې ې ې } فيقول: ((والشعراء يقولون ما لا يفعلون، حسب التعبير القرآني ...))[30] فلا يورد نص الآية، ولا يعزوها إلى سورتها.

فهل يجهل الدكتور الغذّامي أن في القرآن سورة باسم سورة الشعراء؟! فإن كان لا يدري فتلك مصيبة، وإن كان يدري ثم لم يذكر هذا في كتابه الذي جل حديثه فيه عن الشعر وأثره على العرب وثقافتهم: فالمصيبة أعظم.

وهل ما جاء في القرآن بخصوص الشعراء في سورة "الشعراء" مجرد انتقاد هذا النوع من الشعر (اللافاعلي) ؟! أم جاء أولا ً انتقاد الشعراء

(28) "النقد الثقافي" (ص 116).
(29) "النقد الثقافي" (ص 99).
(30) "النقد الثقافي" (ص ؟).

عموماً بأنهم يتبعهم الغاوون، وأنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، ثم استثنى الله من ذلك الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً ؟!

فهذه الآيات الكريمات تبين بجلاء موقف الإسلام من الشعر، فالشعراء بمعمومهم محل ذم، وكذلك من يتبعونهم، لكن ليس كل الشعراء كذلك، فإن الله استثنى منهم طائفة أثنى عليهم.

وإنك تجد الدكتور الغذّامي بعيداً عن هذا المنهج القرآني في الموقف من الشعر، وذلك من جانبين:

الجانب الأول: كونه يضخم من نفسه ويفخم من ذاته ويوهم الأمة أنه صاحب السبق المظفر في مشروع انتقاد الشعر، وهو مخطئ في هذا من جهة انسلاخه من نسبة هذا النقد العام للشعر إلى القرآن الكريم، وكذلك إيهامه أن كل ما جاء في القرآن هو انتقاد نوع من الشعر، وهو (اللافاعلي).

والجانب الثاني: تعميمه نقد الشعر، دونما استثناء لما استثناه الله من الشعراء وأثنى عليهم. وفي هذا تعطيل لخطاب دعوي إسلامي مهم، ومخالفة ظاهرة لهدي النبي ، فإنه أمر بقول الشعر جهاداً للمشركين، وأثنى على شاعريه، وسمع شعراً في المدح وغيره.

ومما ذكره العلماء في معنى قوله (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا ً خير له من أن يمتلئ شعراً ً): أن يمتلئ قلبه من الشعر حتى لا يكون فيه شيء سواه من القرآن وعلم الدين؛ لأن ذلك لو كان معناه، لوجب أن يكون قلبه لو امتلأ من الخطب والرسائل وأساجيع الكهان حتى لا يكون فيه شيء من القرآن وعلم الدين أن يكون غير مذموم، إذ كان الذم من النبي إنما ورد علينا لمن امتلأ قلبه من الشعر خاصة[31].

روى مسلم في صحيحه بإسناده عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعن أبيها: (أن رسول الله قال: « اهجوا قريشا ً، فإنه أشد عليها من رشق بالنبل! ».

فأرسل إلى ابن رواحة، فقال: اهجهم! فهجاهم، فلم يرض، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت.

فلما دخل عليه، قال حسان: قد آن لكم أن تـ ُرسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه! ثم أد ْل َع لسانه فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحق! لأفرينهم بلساني فري الأديم! فقال رسول الله : «لا تعجل، فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإن لي فيهم نسبا ً حتى يلـ َخـ ّص لك نسبي» فأتاه

(31) "تهذيب الآثار" محمد بن جرير الطبري (636-635/2).

Modifier avec WPS Office

حسان، ثم رجع فقال: يا رسول الله، قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق! لأسلنك منهم كما تسل الشعرة من العجين.

قالت عائشة: فسمعت رسول الله يقول لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله! ».

وقالت: سمعت رسول الله يقول: « هجاهم حسان، فشفى واشتفى! ».

قال حسان :

هجوتَ محمداً فأجبت عنه	وعند الله في ذاك الجزاء
هجوتَ محمداً براً تقياً	رسول الله شيمته الوفاء
فإن أبي ووالده وعرضى	لعرض محمدٍ منكم وِقاء
ثكلت بُنيتي إن لم تروها	تثير النقع من كنفي كداء
يبارين الأعنة مصعدات	على أكتافها الأسل الظماء
تظل جيادنا متمطرات	تُلطِّمهن بالخمر النساء
فإن أعرضتمو عنا اعتمرنا	وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لضراب يوم	يعز الله فيه من يشاء
وقال الله قد أرسلت عبداً	يقول الحق ليس به خفاء
وقال الله قد يسرت جنداً	هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من مُعِدٍ	سبابٌ أو قتال أو هجاء
فمن يهجو رسول الله منكم	ويمدحه وينصره سواء ؟
وجبريل رسول الله فينا	وروح القدس ليس له كفاء)[32]

(32) صحيح مسلم: باب فضائل حسان بن ثابت (1935/4/ح2490).

Modifier avec WPS Office

فتأمل رحمك الله هذا الحديث العظيم، وانظر كيف أمر النبي بهجاء قريش، ودعاءه شعراء الصحابة لهذا الجهاد الكبير، وتخيره أبلغهم وأحسنهم، وتأمل كيف نافح حسان عن الله ورسوله بشعره، وانظر ثناء النبي على حسان وعلى شعره، ومن فوقه ثناء رب العالمين في كتابه.

ثم سل الدكتور الغذّامي: أي عيوب نسقية فادحة وخطيرة جداً أسسها فينا هذا الشعر ؟! وهل جنى هذا الشعر على الذات العربية الثقافية ؟!

ويظهر من الحديث السابق خطأ دعوى الدكتور الغذّامي بأن عصر صدر الإسلام -عصر الفتوحات والإنجازات التاريخية- تم القضاء فيه الشعر وأثره السلبي على الأمة، ثم عادت الأمة في العهد الأموي لنكستها ورضوخها الذليل للشعر وأنساقه.

فعصر صدر الإسلام ونبي الإسلام قد وظف الشعر في خدمة الإسلام والذب عن حياضه[33]، مع بيان آداب عظيمة للإسلام تخص الشعر، وتشمله وغيره من آداب الخطاب.

فمن ذلك: موقف الإسلام من المدح، فقد جاء النهي عن مدح الرجل في وجهه، وجاء وصف ذلك بأنه كقطع عنقه.

جاء عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه قال: (أثنى رجل على رجل عند النبي فقال: « ويلك! قطعت عنق صاحبك! قطعت عنق صاحبك! » مرارا ً. ثم قال: « من كان منكم مادحا ً أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلا نا ً والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدا ً، أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه»)[34].

وأما عصر بني أمية، والذي حكم الدكتور الغذّامي عليه بأنه شهد النكسة، والعودة تحت الوطأة الثقافية للأنساق الشعرية، فإن ذاك العصر قد شهد له النبي أنه أحد القرون المفضلة من هذه الأمة! فقال : (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء من بعدهم قوم تسبق شهادتهم أيمانهم وأيمانهم شهادتهم)[35].

ولم يقف اعتناء القرآن الكريم بجانب الشعر عند نزول سورة "الشعراء" وما فيها من ذكر للشعراء وبيان موقف الإسلام من الشعر، فقد بين القرآن فِرية الكفار بوصف نبي الإسلام بقولهم: شاعر، وأكذبهم.

قال سبحانه وتعالى: ﭽ ﯿ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭼ[ا

(33) انظر بحثاً قيماً بعنوان: "ذميم الشعر في التصور الإسلامي" بقلم : مصطفى عيد الصياصنة، في مجلة البحوث العلمية (39/345) موجود ضمن "المكتبة الشاملة" (309/33).
(34) متفق عليه، أخرجه البخاري: (2/946/ح2519) ومسلم: (4/2296/ح3000).
(35) متفق عليه، أخرجه البخاري: (5/2362/ح6065) ومسلم: (4/1963/ح2533).

Modifier avec WPS Office

لأنبياء: ٥] وقال سبحانه: ﭽ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭼ[الحاقة: ٤١]. وقال جل من قائل: ﭽ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﭼ[الطور: ٣٠].

فهل خفي كل هذا على الدكتور الغذّامي ؟! وهل تيسر له الرجوع إلى سبعين مرجعاً عربياً، واثنين وأربعين مرجعاً إنجليزياً، وعجز عن الرجوع إلى كتاب ربه؟! لو بمجرد إيراد آية منه بنصها، أو عزوها إلى سورتها!

إن أظهر تحول في ثقافة العرب هو تحولهم إلى العناية بما جاءهم من الكتاب والسنة، إلى درجة قاربت الاستغناء بهما عما سواهما، ويكفي للدلالة على عظم أثر القرآن على الأمة وشدة عنايتهم به النظر - فقط- في عناوين أبواب كتاب فضائل القرآن في صحيح البخاري – نموذجاً- فإنها تنبيك عن المضمون:

باب: كيف نزول الوحي، نزول القرآن بلسان قريش، جمع القرآن، كاتب النبي ، أنزل القرآن على سبعة أحرف، تأليف القرآن، كان جبريل يعرض القرآن على النبي ...، القرّاء من أصحاب النبي ، فضل فاتحة الكتاب، فضل سورة البقرة، فضل سورة الكهف، فضل سورة الفتح، فضل قل هو الله أحد، فضل المعوذات، نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن، من قال: لم يترك النبي إلا ما بين الدفتين..، فضل القرآن على سائر الكلام، الوصية بكتاب الله، من لم يتغن بالقرآن، اغتباط صاحب القرآن، خيركم من تعلم القرآن وعلمه، القراءة عن ظهر القلب، استذكار القرآن وتعاهده، القراءة على الدابة، تعليم الصبيان القرآن، نسيان القرآن ...، من لم ير بأساً أن يقول: سورة البقرة ... ، الترتيل في القراءة...، مد القراءة، حسن الصوت بالقراءة للقرآن، من أحب أن يسمع القرآن من غيره، قول المقرئ للقارئ حسبك، في كم يقرأ القرآن ...، البكاء عند قراءة القرآن، إثم من راءى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به، اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم(36).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ((وإنما كان علم العرب ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب، أو ما حفظوه من أنسابهم وأيامهم، أو ما احتاجوا إليه في دنياهم من الأنواء والنجوم والحروب، فلما بعث الله محمدا ً بالهدى، تلقفوه عنه بعد مجاهدة شديدة، ونقلهم الله عن تلك العادات الجاهلية التي كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرتها، فلما تلقوا عنه ذلك الهدى، زالت تلك الريون عن قلوبهم، فقبلوا هذا الهدى العظيم، وأخذوه بتلك الفطرة الجيدة ... فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل خلق الله سوى الأنبياء، وصار أفضل الناس بعدهم من اتبعهم بإحسان رضي الله

(36) انظر: فهرس صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن.

Modifier avec WPS Office

عنهم إلى يوم القيامة من العرب والعجم))[37].

وما أورده الدكتور الغذّامي عن عمر بن الخطاب من قوله عن الشعر: إنه (علم العرب الذي ليس لهم علم سواه)، لم أقف عليه في شيء من الموسوعات الحاسوبية[38]، لكنك تجد عن عمر بن الخطاب كلاماً في الحث على تعلم الشعر.

فمما ذُكر عن عمر بن الخطاب : (الشعر جَزل من كلام العرب، يُسكّن به الغَيظ، وتُطفأ به الثائرة، ويتبلغ به القومُ في ناديهم، ويُعطى به السائل)[39].

وذُكر عنه أيضاً : (تحفّظوا الأشعارَ وطالِعوا الأخبار، فإنّ الشِّعرَ يدعو الى مكارم الأخلاقِ ويعلِّمُ محاسِنَ الأعمالِ، ويبعثُ على جميلِ الأفعالِ، ويفتُقُ الفِطنَةَ، ويشحَذُ القريحةَ، ويحدو على ابتناءِ المناقبِ وادّخار المكارمِ، وينهى عن الأخلاقِ الدنيئةِ، ويزجُرُ عن مُواقَعَةِ الريَبِ، ويحضُّ على معاني الرُّتَب)[40].

ولا يخفى أن معنى ما أورده الدكتور الغذّامي عن عمر بن الخطاب يُحمل على الحث على تعلم الشعر وأثره في تهذيب اللسان والفهم، ولكن الدكتور الغذّامي أبى إلا حمله على أنه نفي لكل علم للعرب سوى الشعر! وأعاد هذا وكرره في كتابه مرات وكرات.

والقول بأن العرب - قبل الإسلام وبعده – ليس لهم علم إلا الشعر: يغني ظهور بطلانه عن الكلام في رده، فقد جاء العرب – وغيرهم من أهل الكتاب- من العلم والهدى بنزول القرآن وبعثة النبي الكريم r ما يخرجهم من الظلمات إلى النور: ﭽﭾﭿﮀﮁﮂﮃﮄﮅﮆﮇﮈﮉﮊﮋﮌﮍﮎﮏﮐﮑﮒﮓﮔﮕﮖﮗﮘﮙﮚﮛﮜ [المائدة: ١٥ – ١٦]

وقد جاء الحث على تعلم الشعر عن بعض الصحابة ، فمن ذلك ما جاء عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما - : قال: (الشعر ديوان العرب ، هو أول علم العرب ، عليكم شعر الجاهلية وشعر الحجاز)[41].

وذُكر عن أبي بكر الصديق : (علِموا أولادَكم الشعرَ فإنّهُ يعلمُهم مكارمَ الأخلاقِ)[42].

---

(37) "فصل في الدليل على فضل العرب" ضمن جامع الرسائل. ابن تيمية. تحقيق محمد رشاد سالم. مصر (290-289).

(38) موسوعة المكتبة الشاملة، وموسوعات التراث: المكتبة الألفية، موسوعة العقائد، موسوعة التفسير، موسوعة الفقه.

(39) "العقد الفريد" (310/2) ضمن المكتبة الشاملة.

(40) "نضرة الاغريض في نصرة القريض". المظفر بن عبد الفضل. (65/1) ضمن المكتبة الشاملة.

(41) "تهذيب الآثار" (627/2/ح942) لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. مطبعة المدني. القاهرة. تحقيق: محمود محمد شاكر.

(42) "نضرة الاغريض في نصرة القريض". المظفر بن عبد الفضل. (65/1) ضمن المكتبة الشاملة.

Modifier avec WPS Office

ويظهر من هذه النقولات مخالفة الدكتور الغذّامي لمدلوها من جهتين:

أولاً: أنها تحث على تعلم الشعر، لما له من أثر إيجابي محمود على الخلق واللسان، والدكتور الغذّامي جعل الشعر كله مرذولاً، وجعله مسؤولاً عن فشل الأمة قديماً وحديثاً وحداثياً.

ثانياً: أن الشعر أحد فروع العلم التي يوصى بتعلمه، لكنه ليس العلم الوحيد للأمة، بل قد جاءها من العلم ما يخرج البشرية من الظلمات إلى النور.

ومما ذكره الدكتور الغذّامي فيما يتعلق بثقافة العرب بخصوص الشعر: العلاقة بين الشعر والسحر والجن، فقال: ((وهذا معنى قديم ظل يتحكم في النسق الشعري تولد عنه حس مترسخ بالخوف من الشاعر، وهو **خوف ظلت الثقافة تغذيه وتؤكده** ... ولم يفت الشعراء أن يوظفوا هذه الخرافة الثقافية، ويعتمدوا عليها كقوة في الإرهاب، وساعدتهم الثقافة في ذلك فابتكرت لهم وادياً (وادي عبقر) وشياطين وجنيات تخص كل واحد منهم))[43].

والذي أنتقده على الدكتور الغذّامي أنه يمر على قضية عقدية مهمة – كهذه – ثم ينسبها إلى ثقافة العرب، دون أن يشير أو يُلمح إلى وجود موقف في ثقافة العرب، جاء به الإسلام بخصوص هذه القضية الخطيرة.

فهل المسألة: عدم اعتراف بعلاقة الإسلام بثقافة العرب؟!

أم أن كل ذلك: سقط سهواً ؟!

وعلى أن جوانب دراسة علاقة الشعر بثقافة العرب تحتاج إلى بسط أوسع من هذا، فإني أكتفي بما سبق، ففيه الإشارة إلى أهم الجوانب.

(43) "النقد الثقافي" (ص 163-164) باختصار.

Modifier avec WPS Office

المطلب الثاني: وقفات مع النقد الثقافي.

الوقفة الأولى: حدود النقد الثقافي.

يبين الدكتور الغذّامي أن موضوع النقد الثقافي ومجال بحثه هو: ((نقد الأنساق المضمرة التي ينطوي عليها الخطاب الثقافي بكل تجلياته وأنماطه وصوره، ما هو غير رسمي وغير مؤسساتي، وما هو كذلك ... همه كشف المخبوء من تحت أقنعة البلاغي/ الجمالي ... وكشف حركة الأنساق وفعلها المضاد للوعي وللحس النقدي))[44].

وهذا بخلاف النقد الأدبي القاصر الذي ((أوقعنا في عمى ثقافي تام عن العيوب النسقية المختبئة تحت عباءة الجمالي))[45].

والدكتور الغذّامي يبين ضرورة توسيع دائرة النقد الأدبي ليصبح نقداً ثقافياً، فقد سئل في مقابلة سؤالا ً جاء فيه: ((أشرت في كتابك "النقد الثقافي" إلى ضرورة توسيع دائرة النقد الأدبي ليصبح نقداً ثقافياً لا نقداً أدبياً فقط، هل يمكن إيضاح هذه النقطة ؟)).

فأجاب الدكتور الغذّامي: ((إن توسيع دائرة النقد لتشمل كل ما هو ثقافي وروحي وحياتي هو أكثر ما يقلقني, وذلك يعود إلى أن جملة من الا نكسارات الذاتية ترسبت في ذواتنا وواقعنا, صار لا بد من محوها عبر قناة النقد الثقافي الذي يشمل وجوهاً عديدة من الحياة وليس الأ دب فقط ...))[46].

والذي يؤخذ على الدكتور الغذّامي أنه لا يستثني شيئاً من الوقوع تحت دائرة النقد، ولا يبين وجود ثوابت شرعية مقدسة فوق دائرة النقد، بل يُرجع هذه القدسية في ثقافة العرب إلى تقديس الشعر وتحريم انتقاده، وهو بهذا يُلغي القدسية عن كل شيء، وإذا استُصحب هنا سخطه على واقع الأمة الثقافي والروحي والحياتي، فإن النتيجة أقرب إلى التصريح منها إلى التلميح بضرورة تطبيق نظرية النقد على تطبيقات نصوص الوحي الإلهي في الحياة!

وإن تعبير الدكتور الغذّامي عن المواصفات النسقية للنص المدروس بقوله: ((والأنساق الثقافية هذه أنساق تاريخية أزلية وراسخة ولها الغلبة

---

(44) "النقد الثقافي" (ص 83).

(45) "النقد الثقافي" (ص 7-8) باختصار.

(46) من لقاء مع الدكتور الغذّامي أجراه إياد ناصر، وتجده على الرابط: www.fm-m.com/2004/jul2004/story26.htm

Modifier avec WPS Office

دائماً ...))[47] لا يتماشى بالمطابقة مع النصوص الشعرية، بقدر ما أنه يصدق على نصوص الوحي!

قال فضيلة الدكتور سعيد بن ناصر الغامدي: ((إن النقد الثقافي بأدواته المذكورة وقراءته الترصدية وبحثه عن العيوب والخلل النسقي، سيشمل ـ حالاً أو مآلاً ـ دراسة النسق الاعتقادي عند المسلمين؛ باعتباره النسق الأشمل والأظهر والأرسخ والأعمق! وبالنظر إلى النفسية الترصدية والنظرة التشاؤمية الغالبة على هذا التيار، وبالنظر إلى الخلفية الفكرية المؤطرة بـ العلمانية فإنه سيجد ـ بحسب تصوراته ـ أنساقاً اعتقادية كامنة لها تأثيرات سلبية ومخرجات قبحية ـ بحسب أصولهم ونظريتهم ـ ومن ذلك على سبيل المثال: القضاء والقدر، والولاء والبراء، والغيبيات، كالجن والملائكة وخوارق العادات، وأشراط الساعة.

هذه الأنساق الثقافية (الاعتقادية) المؤثرة هي التي عرّفها الغذامي بقوله: ((أنساق تاريخية أزلية وراسخة ولها الغلبة دائماً)) [48]، وهي وإن حصرها في دراسته بالشعر -بوصفه محور اهتمامه- إلا أن الآلية بما فيها من تعميمية واقتناص وحتمية تعد منصة إطلاق يمكن نقلها إلى حقول أخرى خارج الأدب والشعر: كالتاريخ، والعلوم الإسلامية، وغيرها لممارسة القصف الشامل، لا سيما إذا أخذنا في الاعتبار أن فحيح الحداثيين ضد الثوابت الاعتقادية والأخلاقية والتشريعية واللغوية قد أصبح سمة على أكثر المنتمين لهذا التيار!))[49].

إن أصداء تطاول نظريات النقد إلى النص الإلهي قد فاحت فعلاً، ولن أبتعد كثيراً عن كتاب "النقد الثقافي" لأدلل على هذا، بل سأنقل كلاماً لأحد الأشخاص الذين افتتح الدكتور الغذّامي كتابه بشكرهم، وهو الأستاذ علي حرب[50].

حيث قال في مقال له بعنوان: " آليات الحجب":

((النص يمارس حجباً مضاعفاً، إذ هو يحجب ذاته كما يحجب ما يتكلم عليه. مثال ذلك: **الخطاب الإلهي**، أي القول بأن الله هو الحكم، فإن مثل هذا

---

(47) "النقد الثقافي" (ص 79).

(48) "النقد الثقافي" (ص 79).

(49) نقطة جوهرية جلاها فضيلة الدكتور سعيد بن ناصر الغامدي، أستاذ العقيدة بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، وصاحب أطروحة الدكتوراه: "الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها". من حوار لمجلة "البيان" مع فضيلته، والحوار بخصوص "الاتجاهات الحداثية العربية الجديدة في الساحة النقدية". "مجلة البيان": العدد (208) ذو الحجة (1425هـ). يناير/فبراير (2005م).
تجده على الرابط: www.albayan-magazine.com/conversations/conv-33.htm

(50) انظر: "النقد الثقافي" (ص 6).

Modifier avec WPS Office

القول يحجب أولا ً طبيعة السلطة، أي ناسوتيتها، ويحجب ثانياً رغبة القائل به في ممارسة سلطته على من يتوجه إليهم بالخطاب، ويحجب ثالثاً ذاته، وحجبها أي كون النص نفسه يمارس سلطته على السامع أو على القارئ.

وهذا شأن الدعاة وذوي العقائد، فما يصرح به الداعية هو أنه يدافع عن العقيدة والحقيقة أو يحرس الذاكرة والهوية، ولكن مبنى قوله - أي ما يسكت عنه القول ولا يقوله- هو أنه يدافع عن مرجعيته وسلطته أو سلطانه، وأنه يتصرف إزاء سواه بوصفه أولى منهم بأنفسهم.

وبكلام أصرح: فمنطوق خطاب الداعية أنه يدعوك إلى أمر ما، قد يكون الإيمان والصدوع بأمر ربك، وقد يكون الانخراط في مشاريع الثورة والتحرير أو التغيير، ولكن ما يتستر عليه خطاب الداعية هو كونه يمارس سلطته عليك ، فيما هو يدعوك إلى الأمر، أي كونه يصبح مصدر الأمر والنهي...)) [51].

تأمل قول الأستاذ علي حرب بخصوص النص الإلهي: " ويحجب ثالثاً ذاته، وحجبها أي كون النص نفسه يمارس سلطته على السامع أو على القارئ" فإنه يعد مثالا ً على كراهية الإذعان بالعبودية لرب العالمين، على أقل تقدير.

إن بيان حدود دائرة النقد الثقافي واجب حتمي على كل من خاض في غمار هذه المجالات، طالما أنه من أبناء أمة الإسلام، المُسَلمين بمبادئها وعقائدها، وإن الواجب على الدكتور الغذّامي التأكيد على وجود حدود مقدسة لا يحق لأحد من البشر أن يتخطاها، بل يقف أمام نصوصها موقف المتعبد لا الناقد[52]، فالقرآن: كلام اللّه المتعبد بتلاوته، والسنة من حديث النبي ، وهو من وصفه ربه بقوله: ﭽ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭼ [النجم: ٣ – ٤].

---

(51) المقال على موقع: "الموسوعة الإسلامية": www.balagh.com/mosoa/mabade/qz0x30vf.htm

(52) أورد الدكتور الغذّامي عن نزار قباني نقله لعبارة كروتشيه: "على الناقد أن يقف أمام مبدعات الفن موقف المتعبد لا موقف القاضي"، وقد أورد هذا الدكتور الغذامي كشاهد على "نسق الا ستفحال" فحسب. "النقد الثقافي" (ص 249).

Modifier avec WPS Office

الوقفة الثانية: تاريخية النقد الثقافي.

عرض الدكتور الغذّامي نظريات متعددة مثل: ما بعد الحداثة، ما بعد البنيوية، التاريخانية الجديدة، النقد المدني، وغيرها وعدها بما يسميه: ((ذاكرة المصطلح)) وهي ما يؤسس لنظريته الخاصة عن النقد الثقافي[53].

ومع ذكر هذه النظريات الحديثة والعصرية في النقد، فإنك تجد الدكتور الغذّامي قد أورد شواهد تاريخية، عدها من مواقف النقد الثقافي.

مثال ذلك ما أورده عن حسان بن ثابت في قصة الحطيئة مع الزبرقان بن بدر، عندما شكى الأخير الحطيئة عند عمر بن الخطاب ، حيث قال فيه شعراً وصفه فيه بالطاعم الكاسي، فكان هذا ذماً في صورة المدح، وجاء حسان فأكد أنه لم يهجه بل سلح عليه[54].

فيرى الدكتور الغذّامي أن فعل حسان كان كشفاً عن النسق المضمر، وهذا لب النقد الثقافي.

وكذلك ما ذكره الدكتور الغذّامي عن عمر بن عبد العزيز أنه ((من أول رواد مشروع النقد الثقافي))[55].

ولكنه يعود وينفي وجود النقد الثقافي في تاريخ الأمة الأدبي، فيقول الدكتور الغذّامي : ((ولو شرع أبو حيان في نقد النسق الثقافي العربي من ذلك اليوم، لما اضطر إلى حرق كتبه وإعلان يأسه، ولكان وجد خطاب التدبر والعقلنة))[56].

فإن كانت تطبيقات النقد الثقافي معروفة عند العرب منذ عصور الإسلا م الأولى، فما كان ثم داعي لربطه بالنظريات النقدية الحديثة، بل يكون غاية ما في الأمر ربط هذه النظرية بأصولها السابقة في التاريخ الأدبي العربي القديم، ويكون ما يدعوه الدكتور الغذّامي بالنقد الثقافي إنما هو نوع من الفهم لمغزى النصوص، وليس دعوى لنقد كل ما هو ثقافي وحياتي وروحي.

---

(53) انظر: "النقد الثقافي" الفصل الأول: ذاكرة المصطلح (ص11- 53).
(54) انظر: "النقد الثقافي" (ص 166).
(55) "النقد الثقافي" (ص 159).
(56) "النقد الثقافي" (ص 115).

Modifier avec WPS Office

الوقفة الثالثة: مع نقد الدكتور الغذّامي لنزار قباني.

لقد تركز نقد الدكتور الغذّامي لنزار قباني من جهة اعتباره رجعية إلى أنساق شعرية جاهلية، وجوانب هذا النقد حصرها الدكتور الغذّامي في : الا ستفحال والأنا المتعالية، والنظرة الجنسية للمرأة[57].

وإن العجب من الدكتور الغذّامي أنه ينقل من كلام نزار قباني عظائم وطامات، ثم لا يلتفت إلى مدى مخالفتها لثقافة المسلمين وعقيدتهم! وإنما تكون غيرته على ظهور الرجعية وعودة الأنساق الشعرية، لما في ذلك من مس لكرامة الحداثة، وقدح في كمالها الواجب.

وقبل المبحث الذي جعله الدكتور الغذّامي لدراسة نموذج نزار قباني، فإنه توقف عند ما عده أصل الظاهرة، وهو اختراع الفحل، فبيّن غلو بعض الشعراء منذ القديم في تعظيم ذواتهم، وجنوح بعضهم إلى الوصول إلى صفات الربوبية والتأليه، وسريان هذا الغلو لدى بعض الناقدين والمحللين، وبعض الشعراء المعاصرين، ومنهم نزار القباني.

قال الدكتور الغذّامي : ((فالشاعر في أصله الفطري واحد من عباد الله، غير أنه يبدأ بتمييز ذاته عن الآخرين، فالشعراء هم الناس، ومن عداهم ليسوا ناساً، كما يقول أحمد شوقي:

جذبت ثوبي العصي وقالت ... أنتم أيها الناس الشعراء[58]

وهذا المخلوق النسقي المميز لذاته عن غيره لا يقف في تمييزه لهذه الذات عند حد فئوي ... ويأتي الفحل على رأس الهرم الطبقي، حيث يتعزز مفهوم التميز))[59].

ومن الأمثلة التي أوردها الدكتور الغذّامي على ذلك:

قول الفرزدق:

فإني أنا الموت الذي هو ذاهب ... بنفسك فانظر كيف أنت محاوله

وقول جرير جواباً له:

أنا الدهر يفنى الموت و الدهر خالد ... فجئني بمثل الدهر شيئاً يطاوله

وقول المتنبي:

---

(57) "النقد الثقافي" (ص 256) وما بعدها.

(58) الصواب: أيها الناس أنتم الشعراء.

(59) "النقد الثقافي" (ص 124-125).

Modifier avec WPS Office

وإني لنجم تهتدي بي صحبتى إذا حال من دون النجوم سحاب

ثم يقول الدكتور الغذّامي: ((حتى يأتي العقّاد فيؤله الشاعر في بيت يقول فيه:

والشاعر الفذ بين الناس رحمن!

ويلتقط نزار قباني هذه الدلالة النسقية فيقول في مقدمة ديوانه (طفولة نهد): "ماذا نقول للشاعر، هذا الرجل الذي يحمل بين رئتيه قلب الله (!)، ويضطرب على أصابعه الجحيم، وكيف يعتذر لهذا الإنسان الإله (!) الذي تداعب أشواقه النجوم" وهذه هي قمة الغلو والتفحل.

ويقتبس نزار مع هذا القول في المقدمة نفسها كلمة كروتشه التي تحمل قانوناً فحولياً دالا ً حيث قال: " على الناقد أن يقف أمام مبدعات الفن موقف المتعبد (!) لا موقف القاضي".

وينتهي المطاف الفحولي في لعبة الانكفاء والعجب بالذات إلى حد أن تعلن هذه الذات النسقية أنها قد جربت أنواع العبادة كلها، فوجدت أن أحسن العبادات هو عبادتها لذاتها، وهذه قمة الانغلاق والتعالي ...))[60].

يعلق الدكتور الغذّامي على هذا بقوله: ((وعبر هذه الجمل الثقافية يجري منح الفحل النسقي صفات التميز الطبقي، وإن بدت هذه الصفات منحاً خاصة يمنحها الفحل الشعري لنفسه، فهذا ليس سوى ظاهر الأمر، فالثقافة هي المانحة وهي المؤسسة لذلك كله ..))[61].

وتوصل الدكتور الغذّامي إلى النتيجة، وبينها بقوله: ((ظهور مخترع شعري: تضخم الأنا، ومنح الثقافة للذات الشعرية مزايا وصفات متعالية، وتنزيهها من النقد وتبرئتها من العيوب، مما يجعلها صنماً بلاغياً، تصنعه الثقافة بيدها لتظل تخضع له وتذل بين يدي مصنوعها النسقي...))[62].

ويحلل الدكتور الغذّامي موقف نزار قباني قائلا ً: ((وبما إن نزار فحل يرث أسلافه من الفحول، فإنه سيضع نفسه في الموضع المتعالي، وموضع الغلو الفاحش، أليس يقول: إن الشاعر هو الإنسان / الإله، وأنه يحمل بين رئتيه قلب الله، وأن على الناقد أن يقف موقف المتعبد أمام مبدعات الفحل ا لأسطوري؟! ، بما أنه يحمل هذا الموروث الفحولي بكامل نسقيته فإنه حتماً سيتمثل هذه الفحولية شعرياً، وها هو ينصب نفسه مانحاً عبيده القراء و القارءات لجنات، هي جناته، ولنيران هي نيرانه ...

(60) "النقد الثقافي" (ص 128-129).
(61) "النقد الثقافي" (ص 129).
(62) "النقد الثقافي" (ص 140).

Modifier avec WPS Office

ثم يتصاعد به الموقف إلى لحظة التوحد التام مع الذات عابدة ومعبودة:

مارست ألف عبادة فوجدت أفضلها عبادة
وعبادة ذاتي

هذه ليست مبالغات شعرية، ولعل عيب ثقافتنا هو في إصرارها على التعامل مع الأوهام بوصفها مبالغات شعرية، وعلى أن أعذب الشعر أكذبه، في حين أن هذه المبالغات المزعومة هي ما يؤسس للتصورات الذهنية والثقافية عن سلطوية الذات وسموها وجبروتها))[63].

لقد أحسن الدكتور الغذّامي ببيانه هذا الغلو المفرط لدى بعض الشعراء والناقدين في تبجيل ذواتهم والتصريح بخلع صفات الألوهية عليها، ولكن اقتصار نقده على أن صنيع أولئك الشعراء أدى إلى ظاهرة تضخيم الذات وظاهرة الفحل، فهذا قاصر جداً.

فالمسألة بلغت حد منازعة الله في ألوهيته، والتصريح بمناقضة كلمة التوحيد! وإيراد النقد منعزلا ً عن أصل ثقافة الإسلام غاية في الوهن و الخور.

إنك تجد نماذج من السنة النبوية تدلك على عظم خطورة المساس بجناب التوحيد ، لدرجة أنك تكاد تعجب من موقفه في شدة إنكاره لما هو دون ما نقله الدكتور الغذّامي بما لا قياس فيه.

فقد جاء عن ابن عباس –رضي الله عنهما- قال: (جاء رجل إلى النبي يراجعه الكلام، فقال: ما شاء الله وشئت. فقال: جعلتني لله عدلا ً! ما شاء الله وحده)[64].

وتجد موقفاً عظيماً للنبي هذب فيه هذا الجانب في شخصية بعض الشعراء والخطباء، وذاك حين قام رجل فقال: (يا رسول الله! إن حمدي زين وإن ذمي شين! فقال النبي : ذاك الله!)[65].

فتأمل كيف جاء الإسلام بتحقيق العبودية لله، وإفراده سبحانه بصفات الكمال والجلال، والتحذير من جانب الكبرياء والتعالي لدى بعض الخلق، وإثبات ذلك لله وحده.

فما أجهد الدكتور الغذّامي نفسه في تقريره من وصف الشعراء بال-(أنا المتعالية) وتعظيم الذات، غافلا ً في ذلك عن نور الوحي وهدي الإسلام

---

(63) "النقد الثقافي" (ص 250-251) باختصار.
(64) أخرجه أحمد (1/347/ح3247) وقال شعيب الأرنؤوط: صحيح لغيره.
(65) أخرجه الترمذي: (5/387/ح3267) وصححه الألباني.

Modifier avec WPS Office

، كان الأولى في تحقيقه وتقريره: إسناده إلى مصدر هويتنا الثقافية.

قال رسول الله : (قال الله عز وجل: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدا ً منهما قذفته في النار).[66]

ويظل انتخاب الدكتور الغذّامي لما نقله عن نزار قباني محل انتقاد عميق، فلك أن تتأمل في شيء مما جادت به قريحة نزار، وأترك لك الحكم بعدها.

قال نزار قباني وقد أكثر من السخرية والاستخفاف بالله تعالى، إذ يقول عن محبوبته[67]:

(إني أحبك من خلال كآبتي

وجهاً كوجه الله ليس يطال). [الأعمال الشعرية لنزار 493/1].

ويقول:

(امرأة ناهية كالرب في السماء). [الأعمال الشعرية لنزار 523/1].

ويقول:

(مادمت يا عصفورتي حبيبتي

إذن فإن الله في السماء). [الأعمال الشعرية لنزار737/1].

ويقول مخاطباً محبوبته وأنه حين يحبها:

(يكون الله سعيداً في حجرته القمرية). [الأعمال الشعرية لنزار188/2].

ويقول:

(الله يفتش في خارطة الجنة عن لبنان). [الأعمال الشعرية لنزار323/2 و 587/3].

ويقول عن عشيقته:

(حين وزع الله النساء على الرجال

وأعطاني إياك

شعرت..

أنه انحاز بصورة مكشوفة إليّ

---

(66) أخرجه أبو داود (59/4/ح328) وصححه الألباني في تعليقه على سنن أبي داود.

(67) من مقال بعنوان: "الانحراف العقدي في أدب الحداثة" للدكتور سعيد بن ناصر الغامدي. تجده على الموقع: "طريق الإسلام".

Modifier avec WPS Office

وخالف كل الكتب السماوية التي ألفها
فأعطاني النبيذ وأعطاهم الحنطة
ألبسني الحرير وألبسهم القطن
أهدى إليّ الوردة
وأهداهم الغصن
حين عرّفني الله عليك
ذهب إلى بيته
فكرت أن أكتب له رسالة
على ورق أزرق
وأضعها في مغلف أزرق
وأغسلها بالدمع الأزرق
أبدؤها بعبارة: يا صديقي
كنت أريد أن أشكره
لأنه اختارك لي..
فالله - كما قالوا لي -
لايستلم إلا ّ رسائل الحب
ولايجاوب إلا ّ عليها
حين استلمت مكافأتي
ورجعت أحملك على راحة يدي
كزهرة مانوليا
بست يد الله
وبست القمر والكواكب
واحداً.. واحداً). [الأعمال الشعرية لنزار 404/2].
ويقول:
(لأنني أحبك
يحدث شيء غير عادي
في تقاليد السماء

Modifier avec WPS Office

يصبح الملائكة أحراراً في ممارسة الحب

ويتزوج الله حبيبته). [الأعمال الشعرية لنزار 442/2]

لقد كان الأولى بالدكتور الغذّامي وهو يمارس النقد الثقافي لبيان قبحيات نزار القباني أن يتمعّر وجهه لله ربه، وغيرة على دينه، لا أن ينتهي به المطاف والجهد بعد العناء إلى نقد الفحولية الشعرية والأنا المتضخمة!

Modifier avec WPS Office

الوقفة الرابعة: مع نقد الدكتور الغذّامي لأدونيس.

لقد شغل الحديث عن أدونيس حيزاً كبيراً من كتاب "النقد الثقافي"[68] وذلك لأن أدونيس يُعد ((علامة وعنواناً على الحداثة))[69]، وقد أراد الدكتور الغذّامي تقييم الإنجاز الحداثي من خلال دراسته لأدونيس، وخرج من ذلك بنتائج مهمة، نتبين من خلالها موقف الدكتور الغذّامي من الحداثة، وتقييم ظاهرة أدونيس حداثياً.

وقد تناول الدكتور الغذّامي بالبحث ظاهرة سابقة لأدونيس، وهي حداثية أبي تمام، فقد عُد أبو تمام حداثياً، ولكنه من وجهة نظر الدكتور الغذّامي: ليس إلا تجديداً شكلياً ينطوي على نسق القدامة بكل عيوبها[70].

ومن خلال حديث الدكتور الغذّامي في هذا الموضع أستشرف تعريفه للحداثة، بأنها: مصادمة المألوف ومواجهة الأعراف التقليدية، وتفجير طاقات اللغة، وتحطيم عمود الأوائل. ولها قانون ممثل في مقولة: لم لا تفهم ما يقال، كجواب على سؤال: لم تقول ما لا يُفهم[71].

وتجد الدكتور الغذّامي يتباكى على الحداثة، ويصفها بالرجعية، ويبين السبب في ذلك فيقول: ((صارت حداثتنا حداثة رجعية، بما أنها توسلت بـ النموذج الشعري، الذي هو نموذج نسقي معيب))[72].

أما بخصوص أدونيس، فقد أطال الدكتور الغذّامي النقل عنه، وأتلمس نقل أحد أخص المواضع، مما فيه دلالة على غيره، حيث قال ((ما أن تشرع في قراءة النصوص حتى تصدمك الأنا الأدونيسية بتضخماتها المسرفة بـ التعالي الأسطوري في تفرد هذه الذات وتميزها الخرافي.

فهي ترى ذاتها بأنها: أنا العالم مكتوباً، وأنا المعنى، وأنا الموت، وأنا سماء وأتكلم لغة الأرض، وأنا التموج، وأنا النور، وأنا الأشكال كلها، وأنا الداعية والحجة[73].

هذه سمات المفرد، أما صيغته الجامعة فتأتي من كونه يرى ذاته بما إنها الفضاء الكوني كله: أنا الموزع بين زحل والزهرة وعطارد، وأنا الصوت يرتجل

---

(68) "النقد الثقافي" (ص 270-295) وهو الجزء الأخير من الكتاب، وبمثابة نتيجة الكتاب.

(69) "النقد الثقافي" (ص 270).

(70) "النقد الثقافي" (ص 180).

(71) انظر "النقد الثقافي" (ص 178-181).

(72) "النقد الثقافي" صفحة الغلاف الخارجي.

(73) وأحال الدكتور الغذّامي على "مفرد بصيغة الجمع" لأدونيس: ص 44, 64, 65, 78, 79, 85, 126

Modifier avec WPS Office

في الفضاء، وأنا الحجر يتطوح وقراره الموج، وأنا الصارية ولا شيء يعلوني، أنشيء سلطة الرغبات.

لذا ترى الذات ذاتها في درجة النبوة، وتسمي طفلها: سمه النبي و الخالق!))[74] .

وبعد هذا النقل الإلحادي عن أدونيس، يعلق الدكتور الغذّامي قائلا ً: ((ويجب علينا هنا أن نحتاط لأنفسنا، فلا يأخذنا الوهم إلى أبعد مما يصح (!) ...

هذه الجمل ليست من مبتكرات أدونيس، وهي ليست سوى جمل مكررة عن شعراء سبقوا أدونيس إليها (!) ...وهذا معناه أننا أمام جمل ثقافية نسقية ... وليس الجمالي إلا غطاء تتقنع به الأنساق لتمرر هيمنتها على الذائقة الجمالية)).

ويبن الدكتور الغذّامي حكمه على حداثة أدونيس بأنه: ((أعاد إنتاج (الفحل) بكل صفاته (عيوبه) القديمة، صورة الرجل الأوحد المتفرد، التي تنفي الآخر ولا يقوم وجودها إلا بتفردها أي بإلغاء الآخر))[75] .

ويقول عن أدونيس: ((نموذج مغرق في رجعيته، وإن بدا حداثياً، وادعى ذلك، إنها حداثة في الشكل، وحداثة فردية متشعرنة، فيها كل سمات النموذج الشعري، بجمالياته من جهة، وبنسقيته من جهة ثانية، إنها تعيدنا مرة أخرى إلى كائنات بلاغية، تعيش الموت العظيم ...

وما كان مشروع أدونيس إلا مشروعاً في تغيير المجاز فحسب، ولم يغير في (الحقيقة) ...))[76] .

وأنقل لك طرفاً من النقولات عن أدونيس، تحكم من خلالها على حكم الدكتور الغذّامي على حداثة أدونيس.

قال أدونيس: ((الأخلاق التقليدية هي التي تعيش الخوف من اللّه، وتنبع من هذا الخوف، الأخلاق التي يدعو إليها جبران، هي التي تعيش موت اللّه [الثابت والمتحول 3 - صدمة الحداثة: ص 178 – 179]))[77]

ويقول أدونيس: ((اللّه والأنبياء والفضيلة والآخرة، ألفاظاً رتبتها الأ

---

(74) أحال الدكتور الغذّامي إلى المرجع السابق لأدونيس: ص 42، 44، 85، 147. والنقل عن "النقد الثقافي" (ص 273).
(75) "النقد الثقافي" (ص 86).
(76) "النقد الثقافي" (ص 294-295).
(77) هذه المقولة وما يليها عن أدونيس من مقال بعنوان: "الانحراف العقدي في أدب الحداثة" للدكتور سعيد بن ناصر الغامدي. تجده على الموقع: "طريق الإسلام".

Modifier avec WPS Office

أجيال الغابرة، وهي قائمة بقوة الاستمرار لا بقوة الحقيقة،... والتمسك بهذه التقاليد موت، والمتمسكون بها أموات، وعلى كل من يريد التحرر منها أن يتحول إلى حقّار قبور، لكي يدفن أولا ً هذه التقاليد، كمقدمة ضرورية لتحرره)) [انظر: الثابت والمتحول 3، صدمة الحداثة: ص 136 – 137].

ويقول أدونيس في ديوانه: ((دماء، لا عاصمٌ، والنبيون ماتوا)). [الأعمال الشعرية لأدونيس 474/1].

ويقول أدونيس: ((ها غزال التاريخ يفتح أحشائي، نهر العبيد يهدر، لم يبق نبي إلا ّ تصعلك، لم يبق إله...، هاتوا فؤوسكم نحمل الله كشيخ يموت، نفتح للشمس طريقاً غير المآذن، للطفل كتاباً غير الملائك، للحالم عيناً غير المدينة، والكوفة هاتوا فؤوسكم)). [الأعمال الشعرية لأدونيس 266/2].

إنني أعود فأقول: إن جوهر الإشكال يكمن في تحديد هويتنا الثقافية، والتي من خلالها نحاكم النصوص وننتقدها ثقافياً، فإن -تنازلنا- وعددنا الإسلام جزءاً من ثقافتنا، فستجد الطرح مختلف، والنتيجة مغايرة، وإلا فإنك ستجد: غيرة وتباكي على الحداثة، مقابل نظرة بعين جامدة وفاه فاغر إلى التطاول على الذات الإلهية، والسخرية بحرمات العقيدة وثوابت الثقافة الإسلامية، لا يتلوها تحريك ساكن، ولا تمعر وجه في ذات الله، وإن هذا لمظنة الهلاك!

((إن المتأمل في المنظومات التعريفية الحداثية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، يجد أنها تنطوي على كامن فكري جوهري، بدايته إعلان استقلال الإنسان واكتفائه بذاته، ونهايته: الوصول إلى تأليهه! لتكون الخاتمة بالقضاء عليه، (فكرة موت المؤلف) (موت المبدع) (تفكيك الإنسان) ونحو ذلك))[78].

(78) من حوار مجلة "البيان" مع فضيلة الدكتور سعيد بن ناصر الغامدي، بخصوص "الاتجاهات الحداثية العربية الجديدة في الساحة النقدية". "مجلة البيان": العدد (208) ذو الحجة (1425هـ). يناير/فبراير (2005م).
تجده على الرابط: www.albayan-magazine.com/conversations/conv-33.htm

Modifier avec WPS Office

الخاتمة

بانتهائي من دراسة هذا البحث بحمد لله، فقد ظهرت لي النتائج التالية:

أهم النتائج:

1- إن أهم ما يمثل هويتنا الثقافية هو قيم الإسلام: عقائده وشرائعه.

2- بميزان هذه الهوية الثقافية يكون تقييمنا الثقافي لكل ما يجد أو يحدث.

3- منشأ الخطأ عند الدكتور الغذّامي هو إقصاؤه قيم الإسلام عن ثقافة الأمة.

4- تنصل الدكتور الغذّامي عن الرجوع للقرآن الكريم، وكأنه لا علاقة له البتة بثقافة الأمة.

5- الكتاب يمثل دعوة للحداثة بمعنى نبذ كل ما هو رجعي موروث ب لا استثناء.

6- لم ينجح الدكتور الغذّامي في تستره بنقد الشعر عن نقد ما وراءه من قيم الأمة.

7- الحداثة تُخفي العداء للعقيدة الإسلامية وتبطنه، والأمر كما قال الله {قد بدت البغضاء من أفواههم وما تُخفي صدورهم أكبر}.

8- أورد الدكتور الغذّامي نقولات لبعض الحداثيين لا تحتمل إلا الكفر ، وتحذلق في الاعتذار لهم، مع إغفاله لنقولات أكثر وضوحاً وصراحة في كفريتها، لكنه انتخب شيئاً وترك آخر، تبعاً لميزانه الثقافي.

وأهم التوصيات التي أوصي بها:

1- الاعتناء بدراسة ما ينزل إلى ساحة الأمة العقدية، وتتبع أثره ومناقشته[79].

2- أوصي نفسي والدكتور الغذّامي وجميع المسلمين بضرورة الا عتزاز بديننا وقيمه، والتمسك بها، فهذا سبيل النجاة.

3- لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح عليه أولها.

(79) وأشكر هنا أخي الباحث خالد القرني، الذي اقترح علي دراسة هذا الكتاب، وأعارني نسخته، فجزاه الله خيراً.

Modifier avec WPS Office

هذا، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

فهرس البحث

Modifier avec WPS Office